

# الباب الخامس

## أثينة

### الفصل الأول

#### بؤوتية هزيود

يتفرع الطريق في شرق مجارا - فيتجه جنوباً إلى أثينة وشمالاً إلى طيبة . والطريق الشمالى جبلى وعر يؤدى بالمسافر إلى مرتفعات جبل سيثرون Cithacron ، وإذا نظر المسافر نحو الغرب رأى من بعيد جبل پرنسس Parnassus . ومن وراء هذا الجبل تقوم مرتفعات أقل منه ، ومن بعدها يتوسط سهل بؤوتية الخصب . وعند سفح التل تقوم بلاثية حيث أفنى حائة ألف من اليونان ثلثمائة ألف من الفرس . وإلى غربها قليلاً نجد لوكترا Leuctra حيث كسب أبامينداس أول نصر عظيم له على الاسبارطين . وإلى غرب لوكترا بقليل يرتفع جبل هليكون Mt. Helicon موطن ربات الشعر « وهبكرين الحية » التى تغنى بها كيتس Keats ، وهى ينبوع الذائع الصيت ، ينبوع الجواد الذى تؤكد لنا الأساطير أنه نبع منه الماء حين ضرب پجسوس Pegasus الجواد المجنح الأرض بقدمه وهو يصعد إلى السماء<sup>(١)</sup> . وإلى شمال هذا النبع مباشرة تقوم مدينة ثسبيا التى لا ينقطع النزاع بينها وبين طيبة ، وبالقرب منها يوجد النبع الذى أبصر فيه تارسس خباله - أو خيال أخته الميتة التى كان يجها على ما جاء فى قصة أخرى<sup>(٢)</sup> .

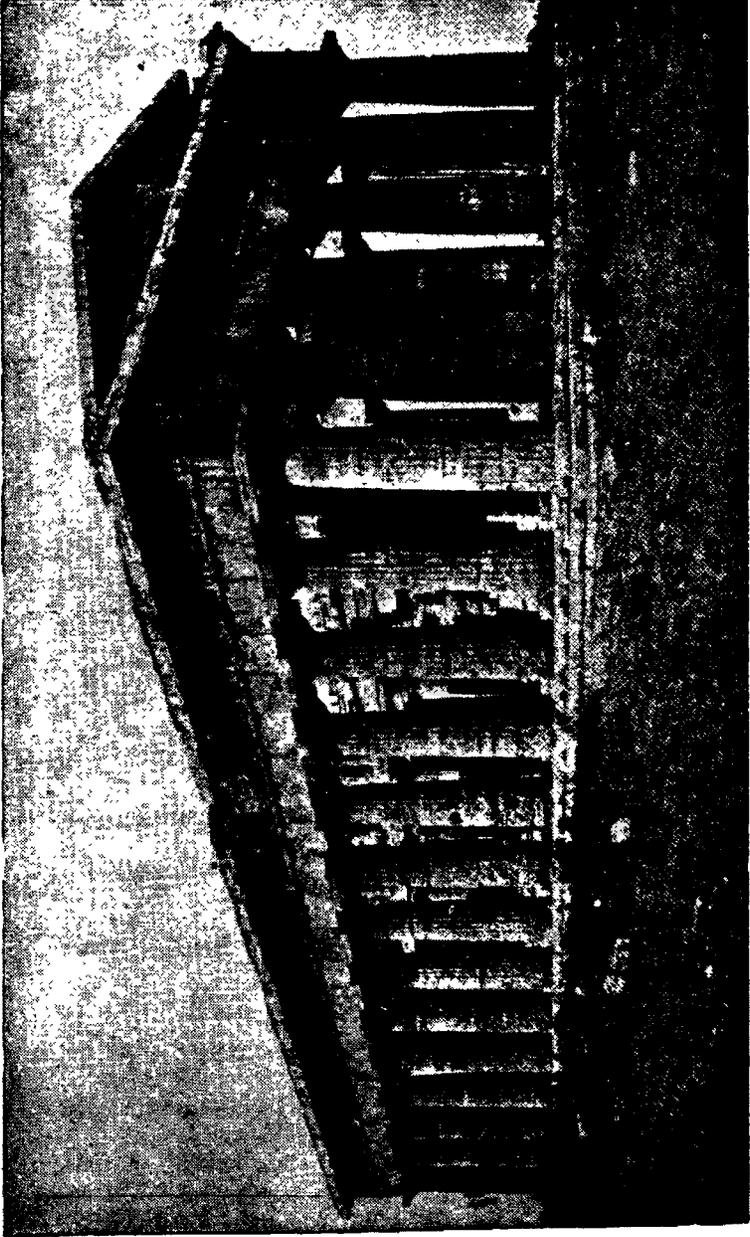
وفى بلدة أسكرا Askra الصغيرة بالقرب من ثسبيا كان يعيش ويكده الشاعر هزيود الذى لا يعلو عنه فى حب اليونان الأقدمين إلا هومر وحده .

وتقول الرواية المتواترة إن هذا الشاعر ولد في عام ٨٤٦ وتوفي في عام ٧٧٧ ، ولكن بعض العلماء المحدثين يؤخرون تاريخه إلى حوالي ٦٥٠ (٢) ، وأكبر ظننا أنه عاش قبل التاريخ الأخير بمائة عام (٤) . وكان مولده في سيمي Cyme من أعمال إيوليا في آسية الصغرى ، ولكن والده حاقت به الفاقة فيها فهاجر إلى أسكرا التي يصفها هزيود بأنها « بائسة في الشتاء ، لا تطاق في الصيف ، وليس فيها خير في وقت من الأوقات » (٥) - كمعظم الأماكن التي يعيش فيها الناس . وبينما كان هزيود الغلام الراعي والعامل في المزرعة يسير وراء قطعانه على سفوح جبال هليكون صاعداً تارة ونازلاً تارة أخرى خيل إليه أن ربات الشعر قد نفثت في جسمه روح الشعر فأخذ يكتبه ويغنيه ويكسب الجوائز في المباريات الموسيقية (٦) ، ويقول البعض إنه فاز على هومر نفسه (٧) .

وإذ كان ككل شاب يوناني مولعاً بمعجائب الأساطير ، فقد كتب (\*) أنساباً للآلهة عندنا منها ألف بيت غث تسرد أسرار الأرباب وملوكهم ، وهي أنساب لا غنى عنها في الدين كما أن أنساب الملوك لا غنى عنها في التاريخ - وقد تغنى في بادئ الأمر بربات الشعر نفسها لأنها كانت جاراته على تل هليكون إذا جاز القول بأن الآلهة يجاورون الآدميين ، وقد صور له خيال الشباب أنه يكاد يراها « ترقص بأقدامها الدقيقة » على سفح الجبل ، و « تغسل جلدها الرقيق » في الهيكربن (٧) . ثم وصف بعدئذ مولد العلم - لا خلقه - فأخذ يقص علينا كيف ولد إله من إله حتى ضاق أولمبس بالآلهة . ويقول إنه في بادئ الأمر عماء ثم « كانت بعدئذ الأرض العريضة الصدر المقر الثابت الأمين لجميع الآلهة المخلدين » ؛ وكان الآلهة في الدين اليوناني يعيشون إما على ظهر الأرض أو في باطنها ، وهم على الدوام قرييون من الناس ،

---

( \* ) هذا ما كان يعتقده جميع الكتاب الأقدمين ما عدا بعض الأدباء البؤوتيين من عاشوا في القرن الثاني بعد الميلاد ، وهؤلاء يرتابون في أن هزيود هو مؤلف هذه الأنساب .



(شکل ۹) میکل پوسیدن فی بیسم

ثم جاء بعدئذ طرطروس Tartarus إله العالم السفلى ثم جاء بعده إروس Eros أو الحب « أجل الآلهة » كلهم<sup>(١٠)</sup> . وولد للماء Chaos الظلمة والليل وولد لهذين الأثير Ether والنهار ؛ وولدت الأرض الجبال والسماء ؛ وولد من اقتران السماء والأرض الأقيانوس Oceanus أى البحر . والمؤلفون الإنجليز يسمون هذه الأسماء بالحروف الكبيرة Capitals ولكن هذه الحروف لم يكن لها وجود في اللغة اليونانية أيام هزيرود ، ومبلغ علمنا أنه لم يكن يقصد بهذا كله أكثر من أن العالم في بادئ الأمر كان عماء ، ثم نشأت الأرض وما في باطنها ، والليل والنهار والبحار ؛ وأن الشهوة هى التى أوجدت كل شئء ولعل هزيرود كان فيلسوفاً أحم الشعر فأخذ يجسد المعانى المجردة وينشئ منها شعراً ؛ وقد لجأ إمدقليز إلى تلك الأساليب نفسها بعد مائة عام أو مائتين في صقلية<sup>(١١)</sup> . وليس بين هذا القصص الدينى وبين فلسفة الأيونيين الطبيعية إلا خطوة واحدة .

ويكثر في أساطير هزيرود الهولات والدماء وهو لا يتحرج من أن يعزو إلى الآلهة أفحش الصلات الجنسية . وقد نشأ من تزواج السماء (أورانوس) والأرض (جى أوجيا) جنس من الجبابرة (Titans) لبعضهم خسون رأساً ومائة يد . ولم يكن أورانوس مجهم فقذف بهم إلى طرطروس المظلمة . ولكن الأرض ساءها هذا فعرضت عليهم أن يقتلوا أباهم . وقام كرونس أحد الجبابرة بهذه المهنة . فابتهجت «جى الضخمة بهذا العمل وأخفته في كمين ؛ ووضعت في يده منجلا ، مثلم الأسنان ، وأوحت إليه بالخطة التى يسير عليها . ثم جاء السماء الواسع وأحضر معه الليل (Erebus) ، وكان السماء عبأ وإلماً فاحتضن الأرض وامتد حولها في جميع الجهات . فلما رأى كرونس ذلك بتر قضيب أبيه وألقى باللحم المقطوع في اليم ، ونشأت من نقط لواء التى سقطت على الأرض آلهة الانتقام (Furias) ؛ ومن الزيد الذى (١٤ - ١ - ١٤١ - ٢)

تكون حول اللحم وهو طاف فوق الماء نشأت أفرديتي (\*) (١٣) . واستولى الجبابرة على أولمپس ، وأنزلوا أورانونس ( السماء ) عن عرشه ورفعوا عليه كرونس . وتزوج كرونس بأخته ريا Rhae ، ولكن أبويه الأرض والسماء كانا قد تنبأ بأن أحد أبنائه سيقتله ، فابتلعهم كرونس جميعاً ما عدا زيوس ، الذى ولدته ريا سرا فى كريت . فلما شب زيوس خلع كرونس وأرغمه على أن يخرج أولاده من بطنه . وأعاد الجبابرة إلى باطن الأرض قوة واقتداراً (١٣) .

مذه هى الطريقة التى ولدت بها الآلهة وهذه هى أساليبهم كما جاء فى أقوال هزيود . وهنا نجد قصة پروميثيوس البعيد النظر ، جالب النار ، ونجد كذلك فجور الآلهة الكثير الممل ، وهو الفجور الذى استطاع به كثير من اليونان أن يصلوا بأنسابهم إلى هؤلاء الآلهة - ولم يكن الإنسان ليظن أن الشعر الذى يروى هذا الفجور سيكون شعراً مملأ خالياً من الروعة إلى هذا الحد . ولسنا نعرف كم من هذه الأساطير كانت هى القصص الشعبى الذى نشأ فى ثقافة بدائية تكاد أن تكون همجية ، وكم منها من تأليف هزيود نفسه ، ولسنا نجد فى صحف هومر الطيبة إلا القليل من هذه الأساطير . ولربما كان بعض الفساد الذى غمرت فيه هذه القصص آلهة جبل أولمپس فى أيام النقد الفلسفى والتطور الأخلاقى ربما كان هذا البعض من خيال شاعر أسكرا القاتم النكد .

وينزل هزيود فى القصيدة الوحيدة التى لا يجادل أحد فى أنها من شعره من قتل أولمپس إلى السهول فيكتب شعراً زراعياً قوياً فى وصف حياة الفلاح . وتلك هى قصيدة الأعمال والأيام وهى عتاب طويل ونصيحة إلى أخيه پرسسيوس ، وقد صوره فيها بصورة غريبة تحمل على الظن بأن هذا الأخ لا يعلو أن يكون تجسيداً أدبياً لمعنى تخيله الشاعر . وهو يقول فى مطلع

---

( \* ) واللفظ مشتق من أفروس Aphros الزبد . أما المقطع الأخير فى الكلمة dite فلا يعرف أصله على وجه التحقيق .

القصيدة : « والآن سأحدث إليك أيها الأخ الأبله برسبوس ولا أبغى مر حديثي إلا الخير لك<sup>(١٤)</sup> » . ويقول لنا هزيود إن برسبوس هذا قد خدعه واغتصب منه بعض ميراثه ؛ ثم يحدثنا بعد هذا الاغتصاب حديثاً هو أول موعظة معروفة في التاريخ تصف فضيلة الجلد وكرامته ، وتقول إن الشرف والكدح أوفر كرامة وأدل على الحكمة من الرذيلة والترف والحمول : « إن من أيسر الأمور لك أن تختار الرذيلة وأن تختار منها أكادساً مكدسة ؛ لأن الطريق إليها معبد ومقامها جد قريب . ولكن الآلهة المخلدين قد أقاموا في سبيل الفضيلة عرق الكدح ، وجعلوا الطريق المؤدى إليها طويلاً وعراً . شاقاً في بداية الأمر ، ولكنك إذا وصلت إلى أعلاه وجدته سهلاً بحق رغم ما لقيت فيه من المشقة قبل<sup>(١٥)</sup> » . ثم يضع الشاعر قواعد لأعمال الزراعة الحدية ، ويمدد خير أيام الحرث والغرس والحصاد ، ويصوغ أقواله في أمثال فجة صقلها فرجيل فيما بعد في شعر بلغ حد الكمال . وهو يحذر برسبوس من عاقبة الإفراط في الشراب صيفاً ومن تخفيف الملابس شتاء . ويصور شتاء بووتية القاسى فيقول عنه إن ريحه زمهرير تسلخ جلد الجؤذر والبحار والأنهار تضطرب مياهها بفعل ربح الشمال ، والغابات تنوح وأشجار الصنوبر تنساقط ، والحيوانات « ترهب الثلج الأبيض » ، وتأوى خائفة إلى حظائرها ومناذرها<sup>(١٦)</sup> ، وما أدفا الكوخ الحسن البناء في ذلك الوقت ، فهو الجزاء الأخير للكدح بشجاعة وفطنة ! ففيه لا تنقطع الأعمال المنزلية مهما اشتدت العواصف ، وفيه تكون الزوجة نعم العون حقاً ، فهي خير عرض للرجل مما سيبته له من متاعب كثيرة .

ولا يستطيع هزيود أن يقطع برأى في الزوجات ، وما من شك في أنه كان أعزب أو أرمل ، لأن من كانت له زوجة حية لا يتحدث عن المرأة بهذا الغل الشديد . نعم إن الشاعر يبدأ في آخر القطعة الباقية من قصيدته ثبناً بأسماء النساء كله شهامة ومروءة ، ويعيد على مامعنا قصص تلك الأيام التي كان عدد البطلات فيها لا يقل عن عدد الأبطال وحين كانت كثرة الأرباب

من النساء . ولكنه يذكر في كتابيه الكبيرين في اغتباط الحاقد الشامت أن معظم الشرور التي في العالم من فعل بندورا الحساء ، وأن زيوس لما غضب على پروميشيوس Prometheus حين سرق النار من السماء أمر الآلة أن تخلق المرأة لتكون هدية يونانية إلى الرجل : « فأمر هفستوس Hephaestus أن يمزج من فوره التراب بالماء وأن يهب المزيج صوت الرجل وقوته ، وأن يجعل وجه الفتاة الحساء جميلاً كوجه الآلهات والمخلدات . ثم أمر أثينا أن تعلمها كيف تنسج القماش المتين ، وأمر أفرديتي الذهبية أن تنشر حول رأسها الرشاقة ، والشهوة الملحة ، والقلق الذي يتلف الأعضاء ، ولكنه أمر الرسول هرمس أن يمنحها عقلاً كعقل الكلاب وأخلاقاً كلها ختل ودهاء . وأطاعوا كلهم زيوس ... ووضع رسول الآلهة في جوفها صوتاً جذاباً ؛ وسمي هذه المرأة بندورا لأن كل الساكنين في البيوت الأولمبية قد أهدوا إليها هدية لتؤذي بها الرجال المبدعين (١٧) » .

ثم يقدم زيوس بندورا إلى إيميشيوس Epimstheus ؛ وقد حذر أخوه پروميشيوس من قبول هدايا الآلهة ، ولكنه رغم هذا التحذير يشعر بأنه لا حرج عليه من أن يخضع للجمال هذه المرة . وكان پروميشيوس قد ترك مع إيميشيوس صندوقاً خفياً عجبياً وأوصاه ألا يفتحه بحال من الأحوال . وغلب على بندورا حب الاستطلاع ففتحت الصندوق فطار منه عشرة آلاف شر أخذت تنفص على الناس حياتهم ، ولم يبق فيه إلا الأمل وحده . ومن بندورا ، كما يقول هزيبود ، نشأ جنس النساء الرقيقات ، ومنها نشأت سلالة مؤذية ، وتسكن طوائف النساء الشديديات الأذى مع الرجال وهن لا يعنهم على الفقر المدقع بل يعنهم على التخمّة ؛ وبهذه الطريقة وهب زيوس الرجال نساء ليكن مصدر الشر والأذى (١٨) » .

ثم يقول الشاعر المذبذب بعدئذ في حسرة ولوعة إن العزوبة لا تغل شراً عن الزواج لأن الشيخوخة مع العزلة شقاء أيما شقاء ، ولأن أملاك من لا ولد له تعود بعد موته إلى عشيرته ، ولهذا فإن من مصلحة الرجل أن

يتزوج - وإن كان عليه ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، ومن مصلحته أن يكون له أولاد - وإن كان من الواجب ألا يكون له أكثر من ولد واحد ، حتى لا تنقسم ثروته بعد موته .

« إذا ما توج النضج فخر رجولتك ، فخذ بيدك إلى بيتك زوجة راضية ؛ وخير سن الزواج هي سن الثلاثين ، فلا تنقص منها كثيراً ولا تزيد عليها كثيراً ؛ . . واخترها عذراء حتى تطيع الأخلاق الطاهرة صدرها بطابع الحب القائم على الحكمة والعقل . ولتكن الهدية التي تهدي إليك فتاة من جبرتك معروفة لك ؛ ولتكن حذراً غاية الحذر لئلا تسيء الاختيار فتكون أضحوكة لجميع من يسكنون حولك . وخير ما تهبه الحكمة الإلهية للإنسان امرأة جميلة فاضلة ؛ وشر ما يصيب الإنسان زوجة صغيرة تقضى كل وقتها في الطعام والشراب . إن هذه المرأة لتحرق بغير نار متقدة جسمك الذي أنهكته المتاعب ؛ وتشعل النار في عظامك القوية التي في داخل جسمك ، وتسبب لك الشيخوخة وأنت لا تزال في عنفوان الشباب (١٩) » .

ويقول هزيبود إن الجنس البشري عاش على وجه الأرض قبل سقوط الإنسان على هذا النحو مئآت من السنين يرسل في حلال السعادة . ذلك بأن الآلهة قد خلقت أولاً في أيام كرونس (ستورينا في شعر فرجيل) جيلاً ذهبياً كانوا كالألهة يعيشون بلا كدح ولا قلق ؛ تنتج لهم الأرض من نفسها الطعام ، وتغذى بكلثها قطعانهم الكثيرة ، ويقضون كثيراً من الأيام فرحين مسرورين لا تدركهم الشيخوخة ، حتى إذا أقبل عليهم الموت أخرج الأمر كان كأنه نوم خال من الآلام والأحلام . ثم خلق الآلهة في نزوة من نزواتهم القدسية جيلاً فضياً أحط منزلة من الجيل الأول ، يحتاج أفرادهم في نموهم إلى مائة عام ، فإذا كمل هذا النمو عاشوا معذبين زمناً قليلاً يدركهم بعده الموت . ثم خلق زيوس جيلاً نحاسياً ، رجالاً أعضاؤهم وأسلحتهم وبيوتهم من النحاس ، شن بعضهم على بعض كثيراً من الحروب

حتى « سلط عليهم الموت الأسود فغادروا ضياء الشمس اللامعة » . ثم عاود زيوس التجربة وخلق جيل الأبطال الذين حاربوا في طيبة وطروادة ؛ ولما مات أولئك الرجال « سكنوا بأرواحهم الخالية من الهم في جزائر الأبرار » ، وجاء من بعدهم شر الناس كلهم ، الجبل الحديدى ، وهم خاق أذنياء فاسدون فقراء لا يعرفون النظام ، يكدحون بالناهار ويقاسون الشدائد والأهوال بالليل ؛ لا يوقر أبناؤهم آباءهم ، يعصون الآلة ويبخاؤون عايمهم ، كسالى مشاغبيون ، يحارب بعضهم بعضاً ، يرشون ويرتشون ، لا يتق بعضهم ببعض ، ويفترى بعضهم على بعض ، ويطأون بأقدامهم وجوه الفقراء منهم . ويقول هزيود في حسرة : « ألا ليتنى لم أولد في هذا العهد بل ولدت قبله أو بعده ! » وهو يتحنى أن يعجل زيوس بدفن هذا الجبل الحديدى في باطن الأرض (٢٠) .

هذا هو اللاهوت التاريخى الذى يفسر به هزيود ما فى زمانه من فقر وظلم . وقد كان يرى هذه اشروور بعينيه ويلمسها بيديه ؛ ولكن الشاعر لم يكن يشك فى أن الماضى الذى ملأه أبطالا وآلة كان أنبل وأجل من هذا الجيل ؛ ولما نرتاب فى أن الناس لم يكونوا على الدوام فقراء معذبين أذلاء كما كان الزراع الذين عرفهم فى بووتية . وهو لا يعرف أن أخطاء الطبقة التى ينتمى إليها قد أثرت فى نظرته ، وأن آراءه فى الحياة والعمل والنساء والرجال آراء ضيقة ، أرضية ، تكاد أن تكون تجارية . وما أبعد هذه الصورة من صورة أعمال الناس التى تطالنا فى شعر هومر ، وهى صورة إن كان فيها الإجمام والفرع فإن فيها أيضاً العظمة والنبل ! لقد كان هومر شاعراً ، يعرف أن وهضة من الجمال تمحو آلافا من الخطايا ؛ أما هزيود فكان فلاحاً يصعب عليه ما تتكلفه الزوجة ، وينضب من وقاحة النساء اللاتى يجاسن حول المائدة مع أزواجهن (٢١) . ويكشف لنا هزيود فى صراحة فظة عما كان فى المجتمع اليونانى القديم من انحطاط قبيح - عن النقر المدمع الذى كان يعانيه رقيق الأرض وصغار الزراع الذين يقوم على سواعدهم مجد

الأشراف والملوك وعبث الحروب . وكان هومر يتغنى بالأبطال والأمرء للأشراف من الرجال والنساء ، أما هزيود فلم يكن يعرف أمرء ، بل كان يتغنى في قصائده بالسوقة من الرجال ويوأم بين نغماته وبين موضوعه . فنحن نستمع في شعره إلى قعقة ثورات الفلاحين التي أنتجت في أتكا من بعد إصلاحات صولون وطغيان بيسستراتس (\*).

لقد كانت الأرض في بوؤتية ، كما كانت في الپلپونيز ، في حوزة نبلاء غائبين عنها يقيمون في المدن أو بالقرب منها . وقد شيدت أكثر المدن رخاء وازدهاراً نحو بحيرة كپسيس Capsais ، وهي الآن جافة ولكنها كانت فيما مضى تمتد بالماء شبكة معقدة من قنوات الري وأنفاقه . وقد غزت هذا الإقليم المغرى الجذاب في أواخر عصر هومر شعوب اشتق اسمهم من جبل بيئون Boeon في إپيروس الذي أقاموا بيوتهم بالقرب منه . وقد استولوا على قبرونيا Chaeronia (وبقرها قضى فليب على حرية اليونان) ، وطبية عاصمتهم في مستقبل الأيام ، ثم استولوا أخيراً على أركنوس العاصمة الميدياوية القديمة . وقد انضوت هذه المدن وغيرها في أيام اليونان الأقدمين تحت لواء طبية في اتحاد بوؤتي يصرف شئونه العامة رجال من أهل هذا الحلف يختارون في كل عام ، ويحفل أهل مجتمعين في كورونية Coronea بعيد الجامعة البوؤتية .

وكان من عادة الأثينيين أن يسخروا من البوؤتيين ويتهوهم بأنهم أغبياء ويعزوا بلادة ذهنهم إلى إفراطهم في الأكل وإلى جو بلادهم الكثير الضباب والأمطار — كما كان الفرنسيون يعيرون الإنجليز سراء بسوء . وقد

---

( \* ) ولا يذكر التاريخ شيئاً عن موت هزيود ، ولكن الأقاصيص تقول إنه وهو في سن الثلاثين أغوى العذراء كليمبي Clymene ؛ وإن أباها قتله وألقى بجثته في البحر ؛ وإن كليمبي حملت منه بابنه الشاعر العمائي استيكوروس Stesiehorus وهو الشاعر الذي ولد مع ذلك في صقلية .

يكون في هذا الوصف والتعليل بعض الصدق ، لأن البووثيين يضطلعون في تاريخ اليونان بدور لا ترتاح له النفوس . من ذلك أن طيبة مثلاً قد ساعدت الغزاة الفرس ، وظلت شوكة في جانب أثينة مئات السنين . ولكننا نضع في الكفة الأخرى - كفة الحسنات - أبطال بلاتية الشجمان الأوفياء ، ونضع هزيود الكادح المثابر ، وبندار الذي بلغ السماكين ، وأهامينداس الأبى الشريف النفس ، وفلوطرخس الحبيب إلى النفوس . ومن واجبنا أن نكون على حذر فلا نرى منافسى أثينة بأعين الأثينيين .

---

## الفصل الثاني

### دلفى

بعد أن يغادر الإنسان قيرونيا مدينة أفلو طرخس يصعد وهو يعرض حياته للخطر فوق اثني عشر ميلا يلتقى عند آخرها بفوقيس Phocis ، ثم يصل عند سفح جبل پارنسس نفسه إلى دلفى مدينة اليونان المقدسة . وعلى بعد ألف قدم من تحتها ينبسط سهل كريسبا Crisaea الذى تتلأأ فيه بأوراقها الفضية عشرة آلاف شجرة زيتونة ؛ وعلى بعد خمسمائة قدم أخرى تحت هذا السهل يمتد فى الأرض جون صغير من خليج كورنثة ، تمر فيه السفن وهى مقبلة من بعيد ، تهادى فى بطاء وصمت فوق المياه الساكنة الخداعة . ومن وراء الجون سلاسل أخرى من الجبال تكسوها عند مغيب الشمس حلة أرجوانية . وعند منعطف فى الطريق يلتقى السائح بنبع كستاليا Castalia فى خائق بين الصخور العمودية . وتروى القصص أن أهل دلفى ألقوا لإسوب Aesop من فوق هذه الصخور المرتفعة ( وأضافوا بقولهم هذا خرافة أخرى إلى خرافاته ) ؛ كما يروى التاريخ أن فلوميلوس Philomelus الفوقى Phocian طارد اللكرين المنهزمين من فوق هذه الصخور فى الحرب المقدسة (\*) الثانية (٢٣) . ومن فوقها قمنا برنسس التوأمان حيث سكنت ربات الشعر بعد أن ملت المقام فى جبل هيلِكُن . ولم يكن اليونان الذين يتسلفون ماث

(\*) لقد أوقد اليونان نار حربين مقدستين بسبب مطالب هيكل أبلو أولامبا من ٥٩٥ إلى ٥٨٤ وفى قضى اليونان الجنوبيون على ما كان يفرضه أهل سرا Cirrha المجاورة لهيكل من انارات باهظة على الحجاج المارين بغيرهم فى طريقهم إلى دلفى ؛ وكانت الحرب الثانية بين عامى ٣٥٦ ، ٣٤٦ . فيها هزم جيش حلف يونانى بقيادة فليب المقدونى الفوقيين الذين استولوا على دلفى ونهبوا أموال الهيكل . وأدت الحرب الأولى إلى إعلان حياذ دلفى وإلى إمامة الألعاب الپيثية Pythian ، أما الثانية فكانت عاقبتها أن فضحت مقدونية بلاد اليونان .

الأميال فوق الصخور الوعرة ليقفوا على قمة الجبل - متزين على لسان بارز من الصخر بين المرتفعات التي يكسوها الضباب من جهة والبحر الذي تسطع عليه الشمس من جهة أخرى ، ويحيط بهم من جميع الجهات جمال الطبيعة وأهوالها - لم يكن هؤلاء اليونان يشكّون في أن من تحت هذه الصخور إله رهيب . وكثيراً ما زلزلت الأرض في هذا المكان وقذفت الرعب في قلوب الفرس النهابين ، ومن بعدهم بمائة عام في قلوب الفوقيين النهابين ، وبعد مائة عام أخرى في قلوب الغالبيين النهابين ؛ وكانت الزلازل في اعتقاد اليونان من فعل الإله يحمي بها قراره . وكان العباد المتدينون يؤمنون هذا المكان من أقدم الأزمنة التي تتحدث عنها التواريخ اليونانية ليجدوا في الرياح التي تهب بين الأخاديد ، أو الغازات التي تنبعث من باطن الأرض ، صوت لإلههم وإرادته . وكانت الصخرة العظيمة ، التي تكاد تسد الفتحة التي تنبعث منها الغازات ، وسط بلاد اليونان كلها في اعتقاد الأهلين ، ومن ثم كانت هي سرّة العالم أو أمفالوسه *omphalos* كما كانوا هم يسمونها .

وقد شادوا فوق هذه السرة مذابحهم لحي أمهم الأرض في الأيام القديمة ، ثم لأبلو مالكها الأزهر فيما بعد . وكانت تحرس الأخدود في الزمن القديم أفعى رهيبة فتصد عنه الرجال ؛ حتى قتلها فيبوس *Phoebus* بسهم وأصبح هو أبلو البيشين الذي يعبد في هذا الضريح . ولما أن دمرت النيران في عام ٥٤٨ هيكلاً قديماً أعاد بناءه الأشراف الألكميونيون المنفيون من أثينة بأموال اكتسبت بها بلاد اليونان كلها وبأموالهم هم ، وجعلوا له واجهة من الرخام . وأحاطوه برواق دورى الطراز ، وأقاموه من الداخل على أعمدة أيونية . وقامتا رأيت بلاد اليونان ضرباً مثله من قبل . وكان طريق مقدس ملتف حول الجبل يؤدي إلى المزار ، ويزدان في كل خطوة بالتماثيل والأروقة والخزانات أي الهياكل الصغيرة التي أقامها عند تخومه المقدمة ( في أوامبيا ، ودلفي ، وديلوس المدن اليونانية ) لتودع فيها أمورها أو لتكون

هبات منها إلى الإله . وقد أقامت كورنثة وسكسيون خزائن من هذا النوع في  
دلتى ؛ وأقامت مثلها فيما بعد أثينة ، وطيبة ، وسيريني ، وأقامت أحسن  
منها نيدوس Cnidus وسفنوس Siphnos . وفي وسطها كلها شيد ملهى مواجه  
لجبل پرنسس ليذكر الناس أن التمثيل كان في اليونان أصلاً من الأصول  
الدين . وكان يعلو فوق هذه كلها ملعب يمارس فيه اليونان أحب الشعائر  
لإلهم وهي عبادة الصحة ، والشجاعة ، والجمال ، والشباب .

وفي وسعنا أن نتخيل منظر هذا المكان في عيد أبلو ، فنصور لأنفسنا  
الحجاج المتحمسين يزحون الطريق الموصل إلى المدينة المقدسة ، وتغص بهم  
وبصخبهم وضجيجهم النزل والحيام التي أقيمت على عجل لتأويهم ، وهم  
يمرون في حذر وارتياب بين الحوائث التي يعرض فيها للتجار الماكرون  
بضاعتهم ، ثم يصعدون في مواكب دينية أو حاجين إلى هيكل أبلو يطلبون  
إليه الرضوان ، ويقربون إليه القرابين أو الضحايا ، ويرتلون الأناشيد ؛  
أو يتلون الأدعية والصلوات ، ويمجلسون خاشعين في الملهى ، ثم يصعدون  
في خطى ثقيلة متعبة تبلغ الحسمائه عدا ليشهدوا الألعاب البيثية أو ليتطلعوا في  
دهشة إلى البحر والجبال . لقد كانت الحياة يوماً من الأيام تسير على هذا  
النهج المليء بالحمية والحماة .

## الفصل الثالث

### الدول الصغرى

كان الأهلون في الجزء الغربى من أرض اليونان الأصلية يعيشون قانعين بحياتهم الريفية الهادئة طوال تاريخ اليونان القديم ولا يزالون كذلك حتى اليوم . لقد كان الناس في لكريس Locris ، وإيتوليا Aetolia ، وأكرانيا Acarnania ، واينيانيا Aeniania ، لشدة قربهم من الحقائق البدائية الواقعية ، وبعدهم عن تيار الحركة والتجارة الجارف ، لا يجدون متسعاً من الوقت ، وليست لهم المهارة الكافية ، للاشتغال بالأدب أو الفلسفة أو الفن ؛ إن الملعب والملمى العزيزين على أنكا لم يجدا لهما مواطناً في هذا المكان ، وكانت الهياكل نفسها أضرحة قروية لا يجملها الفن ولا تثير العاطفة القومية . وكانت تقوم في فترات طويلة مدائن متواضعة مثل أمفسا Amphissa في لكريس ، أو نوبكتوس Naupactus الإيتولية ، أو كليدون Clydon الصغيرة حيث صاد مليجر Meleager في يوم من الأيام الخنزير البرى مع أطلنطا Atalanta (\*) . وعلى الساحل الغربى بالقرب من كليدون تقوم مسولنجيون Messolongion أو مسولنجى Messolongi حيث

( \* ) دمر خنزير برى حقول كليدون فانبرى له مليجو ابن مليكها إنيوس . ودبر أمر صيده مستعيناً بشيوس ، وكاستر ، وبلكس ، ونسطور ، وچيسن ، وأطلنطا ذات الوجه الجميل والخلو السريع . وقتل الخنزير عدداً من الأبطال ولكن أطلنطا صادته ولميجر قتله . وتزاحم المخطبون على أطلنطا في بيتها في أركاديا ، فوافقت على أن تتزوج من يسبقها منهم واشترطت أن تقتل كل من لا يستطيع أن يسبقها . واستطاع هيرمينيس Hippomenes أن يسبقها بأن ألقي في طريقها وهو يمدو التفاحات الثلاث التى أعطتها إياه أفرديتى من المسردى Hesperides ، فوقفت أطلنطا لتأخذها وخسرت الرهان . وفي وسع انقارى أن يطالع على سب مليجر الحق لأطلنطا وموته المنعج في قصيدة سونيرن Swinburne المسماة « أطلنطا في كليدون Atalanta in Clydon » .

حارب ماركو بوزارس Marco Bozzaris وقتل برون Byron ، ويجرى بين أكرانيا وإيتوليا أعظم نهر في بلاد اليونان - نهر أكلوس الذي اتخذه اليونان ذوو الخيال الحصب إلهاً لهم وعبدوه واسترضوه بالصلاة والضحايا . وبالقرب من منابعه في إبيروس Epirus ينبع نهر أسبركيوس Spercheus ، وبالقرب من شاطئيه في دولة إينيانيا Aeniania الصغيرة كان يعيش الآخيون في العصر السابق لعصر هومر ، هم وقبيلة صغيرة تسمى هليز وهو الاسم الذي سمي به اليونان كلهم أنفسهم طوعاً لحكم العادة التي لا تخضع لغير الهوى . وفي اتجاه الشرق يقع ممر ترمويل المعروف باسم « الأبواب الحارة . . . » بسبب عيونه الكبريتية الساخنة وممره الضيق المنيع الممتد من الشمال إلى الجنوب بين الجبال والخليج المالئ Malic Gulf ؛ وبعد أن يصعد الإنسان جبل أثريس Othrys ويخترق أخيا ثيوتيس Achaea Ththiotis ينحدر إلى سهول تساليا العظيمة .

وفيها عند فرسالس Pharsalus أبادت جنود قيصر المتعبة قوات بيمبي ؛ وليس في بلاد اليونان كلها لإقليم آخر أوفر من تساليا زرعاً ، أو أقوى منها خيولاً ، أو أفقر فنوناً . وتجري فيها الأنهار من جميع الجهات ، ويصب كلها في نهر پنيوس فتكون فيها تربة غرينية خصبة تمتد من حدود الإقليم الجنوبية إلى سفوح السلاسل الشمالية . ويشق نهر پنيوس طريقه خلال هذه الجبال مخترقاً تساليا إلى بحر تراقية ، وينحت بين قمم أسا Assa وأولبس وادي التمي (القطع) حيث تحيط بالنهر الغضوب من جميع الجهات صخور وعرة تمتد على شاطئيه مدى أربعة أميال ، وتعلو عن ماء النهر نحو ألف من الأقدام . وقد قامت على طول النهر في الزمن القديم مدن كثيرة - فيري ، وكرانون ، وفركا ، ولاريسا ، وجيرتون ، وإلاتيا(\*) ، كان يحكمها أمراء إقطاعيون

يعيشون من كدح رقيق الأرض . وهنا في أقصى الشمال يعلو جبل أولمبس أعلى قتل البلاد ومواطن الآلهة الأولمبية . وعلى سفوحه الشمالية والشرقية تقوم پيريا Pieria التي كانت موطن ربات الشعر قبل انتقالهن إلى هليكون(\*) . وإلى الجنوب ، على طول الخليج ، تمتد مجنيزيا حيث تتجمع الجبال من أساً Ossa إلى بليون Pelion .

وتمتد جزيرة عويية العظيمة Euboea مقابلة لسواحل اليونان القارية بين الخليجان الداخلية ومياه بحر إيجه الخارجية ، مبتدئة في عرض المضيق على بعد أميال قليلة من مجنيزيا ، وترتكز على شبه جزيرة في كليس تكاد تصلها بيوتوتية . والعمود الفقري للجزيرة سلسلة جبلية هي امتداد لأولمبس ، وبليون ، وأثريس ، وتنتهي بجزائر سكلديس . وقد بلغت سهولها الساحلية درجة من الخصب والثراء أغرت بها الأيونيين القادمين من أتكا في أيام غزو الدورين ، وأدت إلى فتحها على يد الأثينيين في عام ٥٠٦ ق . م ، وكانت حجة أثينة التي تذرعت بها لهذا الفتح أنها إذا حوصرت عند پيريوس ماتت جوعاً إن لم تصلها حبوب عويية . وكانت رواسب النحاس والحديد وأجراف الأصداف مصدر ثراء كليسيس والأصل الذي اشتق منه اسمها . وقد ظلت وقتاً ما أهم مراكز الصناعات المعدنية في بلاد اليونان ، واشتهرت بسيوفها التي لا تضارعها قط سيوف أخرى ، وبمزهرياتها البرنزية التي بلغت أعلى درجة من الإتقان . ومما ساعد على انتعاش تجارة الجزيرة أن استخدمت فيها نقود من أقدم النقود اليونانية ، وكانت تخرج من كليسيس فكانت مصدر ثراء أهلها وحافزاً لهم إلى إنشاء مستعمرات تجارية في تراقية وإيطالية وصقلية . وكاد نظام الموازين والمكاييل العوني أن يعم بلاد اليونان كلها ، كما أضحت حروف كليسيس الهجائية التي أخذتها رومة عن كومي الإيطالية مستعمرة

(\*) وهي التي وردت في نصيحة ألكسندر بوب الحكيم التي يتضمنها البيتان الآتيان :

إن العلم القليل يعرض للأخطار

فإنما أن ترتوى منه وإما ألا تمس النبع البيري (٢٤)

عوية ، كما أضحت هذه الحروف في صورتها اللاتينية هي الحروف لهجائية لأوروبا الحديثة . وعلى بعد أميال قليلة من جنوب كلسيس كانت مدينة إرثريا منافستها القديمة حيث أنشا منديموس Meredemus أحد تلاميذ أنلاطون مدرسة للفلسفة ؛ وفيما عدا هذا فإن إرتريا وكلسيس Cha cis كلتيهما لا يظهر أسماهما واضحين في تاريخ الفكر أو الفن اليونانيين .

ومن كلسيس يعبر المسافر على جسر قائم مكان المعبر الخشبي الذي أنشئ في عام ٤١١ ق . م مضيق يوربوس Euripus عائداً إلى بوثوتية . وعلى بعد بضعة أميال إلى الجنوب على الساحل البووتي تقع بلدة أويس الصغيرة حيث ضحى أجمنون بابنته للأكمة . وكانت تعيش في هذا الإقليم في يوم من الأيام قبيلة خاملة الذكر هي قبيلة الجرايس التي أرسلت مع العوبيين جماعة من أهلها أنشوا مستعمرة كومي بالقرب من نابلي ، واشتق الرومان من اسم هذه القبيلة الاسم الذي أطلقوه على من قابلهم من الهيلينيين فسموهم الحراكي ( الإغريق ) (\*) . ومن أجل هذا أطلق العالم كله على هلاس Hellas اسماً لم يسم أهلها بلادهم به في يوم من الأيام (٢٥) . وإلى جنوب أويس تقوم تنجارا Tangara التي كسبت شاعرتها كورنا Corinna الجائزة من پندار حوالي عام ٥٠٠ ق . م . والتي صنع خزافوها في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أشهر التماثيل الصغيرة في التاريخ . وبعد خمسة أميال أخرى إلى الجنوب يدخل السائح أتكا ، وفي وسعنا إذا وقفنا على قلال جبال پارنيس أن نبصر تلال أثينة .

(\*) وقد فعل العرب بهم ما يشبه هذا فاشتقوا من اسم الأيونيين اسماً أطلقوه على جميع الهيلينيين فسموهم اليونان أو اليونانيين . ( المترجم )

## الفصل الرابع

### أتكا

#### ١ - ما حول أئينة

إن الجو نفسه في هذا الإقليم يختلف عنه في الإقليم السابق - فهو هنا نظيف ، بارد ، مضيء ؛ وكل سنة هنا تحتوى على ثلثائة يوم ذات شمس ساطعة . وإذا قدم الإنسان إليه تذكر من فوره وصف شيشرون « هواء أئينة الصافي الذى يقال إنه كان له أكبر الأثر في حدة عقول أهل أتكا (٢٦) » . ويسقط المطر في أتكا في الخريف والشتاء ، وقاما يسقط في الصيف والضباب نادر فيها ، ويسقط الثلج في أئينة مرة واحدة في العام تقريباً ، ويسقط أربع مرات أورشاساً كل عام على قمم الجبال المحيطة بها (٢٧) . والصيف هنا حار ولكنه جاف يطاق ؛ وكانت الأراضي المنخفضة في الزمن القديم ذات منافع تنتشر فيها الملاريا فتقلل من ملاءمة الهواء للصحة (٢٨) . وتربة أتكا فقيرة ، والصخور الصلبة قريبة من سطح الأرض في كل مكان تقريباً ، وهذا القرب يجعل الزراعة كفاحاً شاقاً للحصول على أبسط ضرورات الحياة (\*) ؛ ولولا التجارة التي تتطلب كثيراً من المغامرة ، وزراعة الزيتون والكرم التي تتطلب كثيراً من الصبر ، لما أمكن قيام الحضارة في أتكا .

وأكثر ما يدهش له الإنسان أن تقوم مدن كثيرة في هذه الشبه الجزيرة القاحلة ؛ فهي تطالع الإنسان في كل مرفأ على الساحل ، وفي كل واد

---

(\*) يقول توكيدس إن أتكا نجت لفقر تربتها منذ أقدم الأزمان من الانقسامات الداخلية (٩) والغزو الأجنبي .

بين التلال ، فقد استقر في أتكا شعب نشيط مغامر إبان العصر الحجري الحديث أو قبله ، وأكرم وفادة القادمين عليه من الأيونيين - وهم مزيج من البلاسجيين الميسينيين والآخيين<sup>(٢٨)</sup> - الفارين من بوؤتية والبلوونيز أمام المهاجرين والغزاة الشماليين ، وتزوج منهم وتزوجوا منه . ولم يكن هؤلاء القادمون فاتحين من الأجانب ، يستغلون أهل البلاد الأولين ، بل كانوا سلالة مختلطة من شعوب البحر المتوسط ، متوسطى القامة ، سمر البشرة ، ورثوا من طريق مباشر دم الحضارة الهلينية وثقافتها ، وكانوا يعتزون بنشأتها وصفاتها الأصاية<sup>(٢٩)</sup> ، يصلون عن قدسها القوي ، الأكربوليس ، اللورين نصف الهمج الحديثي العهد بالثقافة اليونانية<sup>(٣٠)</sup> .

وكان نظامهم الاجتماعي ممتداً من صلة الدم هذه ؛ فكانت كل أسرة تنتمي إلى قبيلة من القبائل يدعى أفرادها أنهم من نسل بطل مقدس واحد ، ويعبدون إلهاً واحداً ، ويشتركون في حفلات دينية واحدة ، ولهم أركون ( حاكم ) واحد وخازن على المال واحد ، ويملكون مجتمعين بعض الأراضي العامة ، ويستمتعون بحق الزواج والتوارث ، ويقبلون ما تفرضه عليهم واجبات التعاون ، والثأر ، والدماغ ، ويوارون التراب آخر الأمر في مداخل القبيلة . وكانت كل قبيلة من قبائل أتكا الأربع تتألف من ثلاثة بطون ، وكل بطن من ثلاث أفخاذ وكل فخذ من ثلاثين من آباء الأسر أو نحوهم<sup>(٣١)</sup> . وكان تقسيم المجتمع الأتيكي هذا التقسيم القائم على صلة القرى مما يسر تنظيمه الحرب وتعبئته العسكرية ، كما أنه ساعد على قيام طبقة أرستقراطية من الأسر القديمة اضطر كليستينيز بسبب وجودها إلى إعادة توزيع القبائل قبل أن يستطيع إقامة نظام ديمقراطي في البلاد .

وينبغ على الظن أن كل بلدة أو قرية كانت في الأصل موطن بطن من البطون وكانت تسمى أحياناً باسم هذا البطن أو باسم الإله أو البطل الذى ( ١٥ - ج - ١ - مج ٢ )

تعبده ، وكانت هذه هي الحال في أثينة نفسها . وإذا أقبل السائح على أتكا من بوثوية الشرقية التي أولا بأوروبوس Oropus وانطبت في ذهنه صورة غير جميلة لهذا الإقليم ، لأن أوروبوس كانت بلدة قائمة عند تخومه يرتاع لها السائح ارتياحه من أية بلدة مثلها في هذه الأيام . ويصفها ديكى آرکوس . Dicaearchus حوالي عام ٣٠٠ ق . م بقوله إن « أوروبوس معشش للبايعين المحتالين . وموظفو الجمارك في هذا البلد شروهون شرهاً لا يذانيه شره سواه ، وخستهم متأصلة في لحمهم وعظامهم . ومعظم أهله أغلاظ ، شرسو الطباع ، لأنهم أطاحوا برووس المؤدبين الظرفاء من الأهلين » (٣٢) . وإذا اتجه السائح من أوروبوس نحو الجنوب التقى في الزمن القديم بسلسلة من البلدان المتقاربة ؛ رامنوس Rhamnus ، أفدنا Aphidna ، دسليا Dereleia ( وهي مكان ذو موقع حربي حصين اشتهر في حرب الباپونيز ) ، وأكارنى Acharnae ( موطن ديسپوبوليس Dicaeopolis داعية السلام الشرس في مسرحيات أرسطينز ) ، ومراثون ، وبرورونيا Brauronia . وفي الهيكل العظيم الذي كان قائماً في هذه المدينة الأخيرة نصب تمثال أرتيمس الذي جاء به أرسطينز وإفيجينيا من كرسنيز Chersonese في طوروس Taurus ، وكان يحج إليه كل أربعة أعوام كل من يستطيع الحج إليه من أهل أتكا ليشتركوا في حفلات التمتي والدعارة المعروفة باسم برورونيا أو عيسد أرتيمس (٣٣) . وبعد هذا يلتقى السائح براسيه Prasiae وثوركوس Thoricus ، ثم يدخل إقليم لوريوم Laurium الذي تستخرج الفضة من مناجمه ، والذي كان عظيم الشأن في تاريخ أثينة الاقتصادي والحربي ؛ ثم يلتقى في طرف شبه الجزيرة بسونيوم Sunium التي شيد على أطرافها هيكل جميل يهتدى به الملاحون ويوفون فيه بنثورهم إلى بوسيدن . وعلى الساحل الغربي ( لأن نصف أرض أتكا سواحل ، واسمها نفسه مشتق من أكتيكي Aktike أى أرض

السواحل ) ، يمر المسافر بأنافليستوس Anaphlystus ويصل إلى جزيرة سلاميس Salamis (\*) موطن إجاكس ويورديدز ، ومن بعدها إلى إلوسيس المدينة المقدسة لدمتر وطقوسها الخفية ، ثم يعود الأمر إلى بريس ( بيرييه ) Piraeus . وإلى هذا المرفأ الأمين ، الذي ظل مهملًا حتى كشف ثمستكليز فائدته العظيمة ، صارت السفن فيما بعد تنقل جميع غلات عالم البحر المتوسط لتستخدمها أثينة فيما يعود عليها بالمنفعة أو اللذة . وكان جذب تربة أتكا ، وقرب أجزائها كلها من شاطئ البحر ، ووفرة الموانئ الصالحة ، كان هذا كله حافزا لأهل أتكا للاشتغال بالتجارة ؛ وقد كسبوا بفضل شجاعتهم بقوة ابتكارهم أسواق بحر إيجة ؛ ومن هذه الإمبراطورية التجارية العظيمة نشأت ثروة أثينة ، وقوتها ، وثقافتها ، في عصر بركليز .

## ٢ - أثينة في عهد الأجركي

لم تكن هذه البلدان محيطة بأثينة فحسب ، بل كانت أجزاء منها كذلك . وقد سبق القول كيف جمع ثيسوس ، كما يعتقد اليونان ، الأهلين في نظام سياسي واحد وجعل لهم عاصمة واحدة (\*\*). ونشأت أثينة ثم نمت على بعد خمسة أميال من بريس بين معشش من التلال ، همتوس Hymettus وبتلكوس Pentalicus وبارنس Parnes ، حول الحصن الميسيني القديم . وكان جميع ملاك الأراضي في أتكا من مواطنيها . وكانت أقدم الأسر ، وأكثرها أملاكًا هي التي تحمط التوازن بين ذوى السلطان في البلاد ؛ فقد رضوا بقيام الملكية حين كان اضطراب الأمن يهدد

---

( u ) وأكبر الظن أن الفريديين هم الذين أطلقوا عليها هذا الاسم المشتق من شالام أي السام ؛ ومنه أيضاً سالم الخ .

( \*\* ) تحدد الرواية زمن هذه الحادثة بالقرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكن اتحاد أتكا كلها تحت سلطان أثينة لا يمكن أن يكون قد تم قبل عام ٧٠٠ ، وذلك لأن نشيد دمتر « الهومري » الذي وضع حوالى ذلك الوقت حين يتحدث عن إليوسيس يقول إنها كانت لا تزال تحت حكم ملك خاص بها (٣٦)

البلاد ، ولما أن عاد إليها الهدوء والاستقرار عادوا هم أيضاً إلى الاستيمسك بسيطرتهم الإقطاعية وبالحكومة المركزية ؛ ولما مات الملك كادروس Cadrus مية الأبطال مضحياً بنفسه لصد الدورين الغزاة(\*) أعلنوا ( كما تروى القصة المتواترة ) أن أحداً من الناس لا يصلح خليفة له ، واستبدلوا بالملك أركونا ( حاكماً ) يختار ليتولى السلطة مدى الحياة . وفي عام ٧٥٢ حددوا مدة الأركونية بعشر سنين ثم أنقصوها إلى سنة واحدة في عام ٦٨٣ . وفي هذه السنة الأخيرة قسموا سلطة صاحب هذا المنصب بين تسعة أركونيين ، أركون سميت السنة باسمه ليستطيعوا بذلك تأريخ الحوادث ، وأركون يسمى ملكاً ولكنه لم يكن إلا رئيس دين الدولة ؛ وأركون يتولى قيادة الجند وستة مشرعين . وحدث هنا ما حدث في إسبارطة ورومة ، فلم يكن القضاء على الملكية نصراً للعامة أو خطوة مقصودة نحو الديمقراطية ، بل كان يمثل عودة الإقطاعيين إلى السيادة ، ويكرر ما كان يحدث في التاريخ كله من قيام السلطة المركزية تارة وغير المركزية تارة أخرى . وبفضل هذه الثورة المجزأة جرد منصب الملك من كل ما كان له من سلطان ، واقتصر عمل من يتولاه على الكهانة دون غيرها من الأعمال . ولقد بقيت لفظة ملك في الدستور الأثيني حتى آخر تاريخ المدينة القديم ، ولكن حقيقة الملكية لم تعد إليها قط . إن الدساتير قد تبدل أو يقضى عاينها من ذوى السلطة العليا دون أن ينالهم من جراء ذلك عقاب ما إذا تركت أسماءها دون تغيير .

وظل « الحاكرون الشريفو المختد » ( Eupatrid Oligarchs ) يحكمون أتكا زمناً يكاد يبلغ خمسة قرون . وكان أهل البلاد أيام حكمهم مقسمين خمس طبقات سياسية : طبقة الفرسان ( Rippes ) الذين يملكون الخيل(\*\*) .

( \* ) والراجع أنها حادثة خرافية ترجمها الرواية التاريخية إلى عام ١٠٦٨ ق . م .  
( \*\* ) وكانت هذه وقتئذ ميزة الرجل الشريف المهدب كما كانت الحال عند الفرسان الرومان equites والفرنسيين Chevaliers والإنجليز Cavaliers .

والذين يستطيعون أن يكونوا فرقة الفرسان في الجيش ، وذوى الثيران (Zeugitai) الذين يملك كل منهم ثورين والذين يستطيعون أن يسلحوا أنفسهم ليكونوا من فرق المشاة الثقيلة ، وطبقة العمال المأجورين Chetes الذين كانوا يؤلفون فرق المشاة الخفيفة . وكانت الطائفتان الأوليان وحدهما هما اللتين تحسبان في عداد المواطنين ؛ والفرسان وحدهم هم الذين يمكن اختيارهم أركونين أو قضاة أو كهنة . وكان الأركونون بعد أن يتموا مدة توليهم منصبهم يصبحون ، إذا لم يرتكبوا فضائح تلوث سمعتهم ، بحكم منصبهم القديم أعضاء في البول boule أو المجلس الذى كان يجتمع في نسيم المساء العليل على الأريوباجوس Arcopagus أو تل أريس Ares ، ويختارون الأركونين ، ويحكمون الدولة . وقد حدد مجلس شيوخ الأريوباجرستى في عهد الملكية نفسها سلطان الملوك ؛ فلما قامت الحكومة الأبركية كان له مثل ما لنظيره في رومة من سعة النفوذ وعظيم السلطان<sup>(٢١)</sup> .

وكان السكان ينقسمون من الوجهة الاقتصادية ثلاثة أقسام كذلك . فكان على رأسهم الأشراف الكريمو المختد Eupatrids الذين كانوا يعيشون عيشة مترفة بالنسبة إلى غيرهم من الجماعات ، ويقومون في المدن بينا يقوم العبيد والعمال المأجورون بزراعة أملاكهم في الريف ، أو ائجار باستغلال الأموال التى اقترضوها منهم وأداء جزء غير يسير من الأرباح إليهم . ويول هولاء في الثروة العمال العموميون (demiugoi) أى أرباب المهن ، والصناع ، والتجار ، والعمال الأحرار . ولما فتح الاستعمار أسواقاً جديدة للتجارة ، وتحررت هذه التجارة بعد سك العملة ، كان سلطان هذه الطبقة المتزايد هو القوة الفعالة التى أنالتها في عهد صولون وبيستراتس نصيباً من الحكم ، ورفعتها في عهد كليستينز وپركليز إلى ذروة السلطان . وكان معظم العمال أحراراً لأن العبيد كانوا في ذلك العهد لا يزالون أقلية حتى بين الطبقات الدنيا<sup>(٢٢)</sup> . وكان أفقر الأهلىن عمال الأرض (georgoi) ، وهم

الزراع الصغار الذين ينتزعون القوت من التربة الضئيلة ومن شره المرابين والأشراف ، وليس لهم من عزاء إلا التباهى بأنهم يملكون قطعة من الأرض .

وكان بعض هؤلاء الزراع يملكون في أيامهم الحالية أراضي واسعة ، ولكن زوجاتهم كن أكثر خصوبة من أرضهم ، فتقسمت هذه الأرض ثم تقسمت بين أبنائهم وأحفادهم على مر الأجيال . وكان امتلاك العشائر أو الأسر الأبوية للأرض يزول زوالاً سريعاً ، كما كانت الأسوار والحدائق والحواجز تشير إلى الأملاك الفردية وما يصحبها من غيرة وتحاسد . وكما صغرت مساحة الأراضي التي يملكها الأفراد وأضحت الحياة الريفية مزعزعة غير مأمونة باع كثيرون من الفلاحين أرضهم - رغم ما كان يوقع على الذين يبيعونها من عقاب وما يجرمون بسببه من حقوق - ونزحوا إلى أئينة أو غيرها من المدن الصغرى ليشتغلوا فيها تجاراً أو صناعاً أو فعلة . وأصبح غيرهم ، ممن عجزوا عن تحمل التزامات الملكية ، مستأجرين لضياح الأشراف hectemoroï ، أو عاملين فيها لقاء نصيب من غلتها<sup>(٣٨)</sup> . وظل غيرهم في أرضهم يكافحون ، يقرضون المال بربا فاحش ويرهنون أرضهم ضماناً لما اقترضوه ، ولكنهم عجزوا عن الوفاء بديونهم وألفوا أنفسهم لاصقين بالأرض يلزمهم بذلك دائنهم ويعملون فيها عمل الرقيق الإقطاعيين . وكان الدائن المرهونة إليه الأرض يعد مالك الأرض الحقيقي حتى يسترد ماله من دين ، وكان يضع عليها لواحاً من الحجر يعلن فيه هذه الملكية<sup>(٣٩)</sup> . وتضاعفت الملكيات الصغيرة على توالى الأيام ، وقل عدد الملاك ، واتسعت الأملاك الكبيرة . ويقول أرسطاطاليس في هذا : « وأصبحت كل الأراضي ملكاً لعدد قليل من الناس ، وتعرض الزراع هم وأزواجهم وأبنائهم لأن يباعوا بيع الرقيق » لاني داخل البلاد فحسب بل في خارجها أيضاً ، « إذا عجزوا عن أداء إيجار الأرض » أو الوفاء بما عليهم من ديون<sup>(٤٠)</sup> . وألحقت التجارة الخارجية واستبدال النقود بالمقايضة ضرراً آخر بالأهلين ، لأن منافسة مواد الطعام المستوردة من خارج

البلاد أقيمت أثمان محصولاتهم منخفضة ، على حين أن ما كان عليهم أن يؤديه ثمناً للسلع المصنوعة التي كانوا مضطرين إلى شرائها كانت تحدده عوامل لاسلطان لهم عليها ؛ وظلت هذه الأثمان تزداد على توالي السنين . وإذا ما أجدبت البلاد عاماً حل الخراب بكثيرين من الزراع وهلك بعضهم جوعاً . وبلغ الضنك في أتكنا درجة ربح معها الأهليون بالحرب وعدوها نعمة وبركة ، فقد تؤدي إلى كسب أرض جديدة ، وستؤدي حتماً إلى قلة الأفواه التي تتطلب الطعام<sup>(٤١)</sup> .

وفي هذه الأثناء كانت الطبقات الوسطى من أهل المدن التي لا يقف في وجهها القانون تنزل بالعمال الأحرار الفقر والضنك ، وتستبدل بهم الرقيق شيئاً فشيئاً<sup>(٤٢)</sup> . وبلغ الجهد العضلي من الرخص حداً أصبح معه كل القادرين على ابتاعه يترفعون عن العمل بأيديهم . وصار العمل اليدوي غلاماً وعبودية ، ومهنة غير جديرة بالأحرار ، وأخذ ملاك الأرض ، لغيرتهم من ثراء التجار المتزايد ، يبيعون في خارج البلاد الحبوب التي يحتاجها مستأجرو أرضهم طعاماً لهم ، وانتهوا آخر الأمر ببيع الأثنيين أنفسهم تطبيقاً لقانون الديون<sup>(٤٣)</sup> .

وأمل الناس وقتاً ما أن تعالج تشريعات دراكون Draco هذه الشرور . فقد كلف هذا المشرع ثسموثيتي Thesmothete حوالي عام ٦٢٠ بأن يسن القوانين الكفيلة بإعادة النظام إلى أتكنا ، وأن يسجلها كتابة لأول مرة . في تاريخ اليونان . ومبلغ علمنا أن أهم ما أنجده من تقدم في قوانينه هو أنه وسع إلى حد ما دائرة من لهم الحق في أن يُختاروا أركونين حتى شملت كثيرين من الأغنياء المحدثين ، وأحل القانون محل النصب والانتقام ، وأصبح مجلس الشيوخ الأريوباجوستي بعدئذ صاحب الحق في النظر في جميع جرائم القتل . وكان هذا التشريع الأخير إصلاحاً أساسياً تقدماً ؛ ولكنه لما أراد أن ينفذه ، بل لما أراد أن يفتح ذوى الثراء بقبوله وبأنه أسمى من كل ما يستطيعون فرضه من ثأر وانتقام ، لما أراد هذا وذلك

اضطر أن يضمن قوانينه صنوفاً من العقاب القاسى الشديد . ولما أن حلت شرائع صولون محل معظم قوانينه هو ، كان كل ما يذكره الناس به هو خروب القسوة والعقاب لا قوانينه نفسها . والحقيقة أن دراكون قد جمع فى شرائعه ما كان فى نظام الإقطاع من عادات قاسية مهوشة خالية من النظام ، ولكنه لم يفعل شيئاً لإنقاذ المدينين من الاسترقاق ، أو يقلل من استغلال الأقرباء للضعفاء ، ومع أنه قد وسع دائرة من لهم حقوق سياسية بعض التوسيع ، فإنه ترك لطبقة كرام الحنبد (اليوترد) السيطرة التامة على دور القضاء ، كما ترك لهم الحق فى أن يفسروا كما يرون كل ما يمس مصالحهم من القوانين ونقط الخلاف<sup>(٤٤)</sup> . وقد ضمنت شرائعه لأصحاب الأملاك حماية أكثر مما كان لهم من قبل ؛ فكانت السرقات الصغيرة ، بل التراخى فى العمل ، يعاقب عليهما بجرمان المواطنين من حقوقهم السياسية ، ويعاقب عليهما غير المواطنين<sup>(\*)</sup> بالإعدام<sup>(٤٥)</sup> .

وبينا كان القرن السابع عشر قبل الميلاد يقترب من نهايته ، كان حقد الفقراء المعدمين عديمى النصير على الأغنياء المتمتعين بحماية القانون قد أوشك أن يقذف بأثينة فى أتون الثورة . ذلك أن المساواة ليست نظاماً طبيعياً ، وحيث تطلق الحرية للكفاية وللدهاء فلا بد من أن تنشأ الفوارق وتبقى حتى تقضى على نفسها فى الفقر الشامل الذى تؤدى إليه الحرب الاجتماعية والذى لا يميز بين من كان فى الأصل غنياً ومن كان فقيراً ؛ وقصارى القول أن الحرية والمساواة ليستا ريفيين متلازمين بل عدوين متباغضين . وتجمع الثروة يبدأ بأن يكون نظاماً محتوماً ، ثم ينتهى بأن يكون نظاماً مهلكاً مبيداً . وفى ذلك يقول أفلوطرخس : إن التفاوت فى الثراء بين الأغنياء والفقراء قد بلغ غايته ، حتى بدا أن المدينة قد أضحت فى حال تخشى مغبتها ، وأن ليس ثمة وسيلة تنجىها من الاضطراب . . . إلا سلطة استبدادية<sup>(٤٦)</sup> . ورأى الفقراء أن حالهم تزداد سوءاً عاماً بعد عام ،

(٥) « كان الذى يسرق كرتبة يجازى بما يجازى به من يقتل أمه أو يتهك حرمة

القدس • صولون لأفلوطرخس .

فزام الحكم والجيش في أيدي سادتهم ، والمحاكم الفاسدة المرتشية تقضى في كل نزاع في غير مصلحتهم<sup>(٤٧)</sup> - فأخذوا يتحدثون عن الثورة العنيفة ، وعن توزيع الثروة توزيعاً يخالف ما هو قائم وقتئذ مخالفة تامة<sup>(٤٨)</sup> . فلما عجز الأغنياء عن تحصيل ما لهم من ديون قانونية ، وأغضبهم تحدى الفقراء لهم وتهديدهم بالاعتداء على أموالهم المدخرة وأملأهم<sup>(٤٩)</sup> ، لجأوا إلى القوانين القديمة واستعدوا للحماية أنفسهم بالقوة من الغوغاء ، بعد أن بدا لهم أن هؤلاء لا يهددون أموالهم فحسب ، بل يهددون فوق ذلك النظام القائم كله ، والدين ، والحضارة بقضها وقضيضها .

## ٢ - الثورة الصولونية

قد يبدو عجباً بعيداً عن المعقول أن يقوم في هذا الدرك الذي تدهورت إليه شئون أثينة والذي يتكرر كثيراً في تاريخ الأمم ، نقول قد يبدو عجباً أن يقوم رجل يستطيع بغير عنف أو خطب قاسية مريرة أن يقنع الأغنياء والفقراء على السواء بأن يسووا أمورهم فيما بينهم تسوية لم تحل دون الفوضى الاجتماعية فحسب بل أقامت فوق ذلك نظاماً سياسياً واقتصادياً جديداً خيراً من النظام السابق ، بقي ما بقيت أثينة مدينة مستقلة . ألا إن ثورة صولون السلمية لمن المعجزات التاريخية التي تبعث الشجاعة والأمل في النفوس !

كان والد صولون من الأشراف الكرام المحتد ، ومن أرفعهم بيتاً ، وأنقاهم دماً ، ينتهى نسبه إلى الملك كدروس ، بل إنه كان يتبع نسبه إلى يوسيدن نفسه . وكانت أمه ابنة عم بيسستراتس الطاغية الذي خرق دستور صولون في أول الأمر ثم عاد بعدئذ فثبت دعائمها . وقد انغمس صولون في شبابه فيما كان ينغمس فيه أهل زمانه : فكان يقرض الشعر ويتغنى بملاذم الصداقة اليونانية<sup>(٥٠)</sup> ، وفعل ما فعله تراتوموس Tyrtaetus فأثار حماساً

الناس بشعره ودفعمهم إلى فتح سلاميس<sup>(٥١)</sup> . ثم صلحت أخلاقه في سن الكهولة صلاحاً يتناسب تناسباً عكسياً مع شعره ، فأصبحت أشعاره فاترة ونصائحها جيدة . انظر مثلاً إلى قوله في أشعاره: « إن الكثيرين من الناس أغنياء ، ولكنهم لا يستحقون هذا الغنى ، على حين أن من هم خير منهم يقاسون آلام الفاقة . ولكننا لن نستبدل حال هؤلاء الأغنياء بحالنا ، لأن ميزتنا باقية دائمة ، أما ميزتهم فإنها تنتقل من إنسان إلى إنسان » ، وثروة الغنى « ليست أعظم من ثروة من لا يملك إلا معدته وورثته وقدميه ، وهى الأعضاء التى تأتية بالسرور ولا تأتية بالألم ؛ وليست خيراً من محاسن الفنى أو الفتاة أو نضرة شبابه أو شبابها ، أو من وجود ينسجم مع صروف الأيام<sup>(٥٢)</sup> » . ولما حدث فى أثينة شقاق وانقسام بقى هو على الحياض ، وكان ذلك لحسن الحظ قبل أن تقرر الشرائع المعزوة له أن هذه الحبيطة جريمة<sup>(٥٣)</sup> ، ولكنه لم يتردد قط فى التشهير بالوسائل التى سلكها الأغنياء لإذلال الفقراء ، ودفعمهم إلى أخضاض الفاقة<sup>(٥٤)</sup> . وإذا كان لنا أن نأخذ بأقوال أفلوطينوس فإن والد صولون قد « بدد ثروته فى التصديق على الناس والإحسان إليهم » . واشتغل صولون بالتجارة وأصبح من التجار الناجحين ذامصالح كثيرة فى أقطار بعيدة ، أكسبته خبرة واسعة وأمكنته من الأسفار والتنقل فى بلاد بعيدة ، وكان يسير فى عمله على المبادئ التى يدعو إليها فى قوله ، واشتهر بين جميع طبقات الناس بالاستقامة . وكان لا يزال صغير السن نسبياً - فى الرابعة والأربعين أو الخامسة والأربعين - حين أقبل عليه فى عام ٥٩٤ مثنائ الطبقات الوسطى يدعوونه إلى قبول ترشيحهم إياه ليكون أركونا بالاسم *teponymos* ، على أن يمنح ساطة مطانئة لإخاد نار حرب الطبقات ، ووضع دستور جديد للبلاد ، وإعادة الاستقرار إلى الدولة . ووافقت الطبقات العليا على هذا

الاختيار وهي كارهة ، وكان الباعث لها على الموافقة ثقتها بأن رجلا مثله من أصحاب المال لا بد أن يكون رجلا محافظا .

وكانت أعماله الأولى أعمالا بسيطة ولكنها كانت من قبيل الإصلاحات الاقتصادية الشاملة ؛ وقد خيب آمال المتطرفين بإحجامه عن إعادة تقسيم الأراضي . ولو أنه فعل هذا لأدى ذلك إلى الحرب الأهلية وإلى القوضى التي تدوم جيلا كاملا ، وإلى عودة الفوارق مسرعة ، ولكن صولون استطاع بفضل قانونه الشهير قانون السيسكتيا Seisachtheia أو « رفع الأعباء » أن يلغى كما يقول أرسطاطاليس « جميع الديون القائمة سواء أكانت للأفراد أم للدولة<sup>(٥٥)</sup> » ، وهكذا حرر أراضي أتكا من جميع الرهون بجرة قلم ؛ هذا إلى أنه أطلق سراح جميع من استرقوا أو التصقوا بالأرض ، وكل من يبعوا رقيقاً في خارج البلاد وطالب إليهم أن يعودوا إلى مواطنهم ، وحرم مثل هذا الاسترقاق في المستقبل . وخليق بنا أن نذكر من خصائص الخلق في هذا المقام أن بعض أصدقاء صولون قد عرفوا ما يعتزمه من إلغاء الديون فاشترى أراضي واسعة مرتته ثم احتفظوا بها فيما بعد من غير أن يؤدوا ما عليها من رهون ؛ ويحدثنا أرسطاطاليس بأسلوب تهكمي بأن هذا كان منشأ ثروات طائفة كثيرة العدد « ظن الناس » فيما بعد « أنها ترجع إلى أزمة لا يذكرها الناس لقدم عهدها<sup>(٥٧)</sup> » . وقال بعض الناس إن صولون قد تغاضى عن هذا العمل وإنه استفاد منه ، حتى تبين بعدئذ أنه وهو الدائن الكبير قد خسر بقانونه الشيء الكثير<sup>(٥٨)</sup> . واحتج الأغنياء بأن هذا التشريع كان في حقيقة الأمر مصادرة لأموالهم ، ولكنه أصم أذنيه عن سماع احتجاجهم ؛ ولم تمض عشرة أعوام على صدوره حتى أجمع الناس ؛ أو كادوا يجمعون ، على أنه أنجى أتكا من الثورة<sup>(٥٩)</sup> .

وثمة إصلاح آخر من إصلاحات صولون لا نستطيع أن نتحدث عنه حديثاً يقينياً واضحاً . وفيه يقول أرسطاطاليس إن صولون قد « استبدل

بالنقرد الفيديونية « Pheidonian » - أى النقود الأجنبية التى كانت مستعملة فى أتكا حتى ذلك الوقت - « نظام عوبية النقدى على نطاق واسع وجعل قيمة المينا mina (\*) مائة درخمة بعد أن كانت من قبل سبعين (١٠) » .  
ويقول أفلوطرخس فى بيانه عن هذا الإصلاح ، وهو أوفى من بيان أرسطاطاليس ، إن صولون جعل المينا تصرف بمائة درخمة بعد أن كانت ثلاثاً وسبعين ، وبهذا أصبحت قيمة القطع التى تدفع أقل مما كانت قبل وإن كان عددها واحداً ، وكان فى هذا نفع كبير للذين يريدون أن يوفوا بديونهم ، ولم يكن فيه خسارة على الدائنين (٦١) . إن أفلوطرخس الظريف الكريم وحده هو الذى استطاع أن يجد طريقة لتضخم العملة ينفذها المدينون دون أن يلحق الضرر بالدائنين - إلا هذا الضرر الوحيد وهو أن نصف العمى فى بعض الحالات خير بلا ريب من العمى كله (\*\*).

وكان أبقي من هذه الإصلاحات الاقتصادية تلك القرارات التاريخية التى أنشئ بمقتضاها دستور صولون . وقد قدم لها صولون بعفو عام أطلق به سراح كل من سجن ، وأعاد إلى البلاد كل من نفي منها لجرائم سياسية إذا لم تكن هذه الجرائم هى محاولة اغتصاب تماليد الحكم فى البلاد . ثم واصل عمله بأن ألغى إلغاء صريحاً أو ضمناً معظم شرائع دراكون ؛ إلا أنه أبقى منها على القانون الخاص بعقاب القتلة (٦٢) وقد طبقت قوانين صولون

---

(\*) انظر قيمة العملة الأثينية فى الفصل الثالث من الباب اثنى عشر من هذا كتاب .  
(\*\*) فسر جروت Grote وغيره قول أفلوطرخس إن صولون قد خفض العملة بمقدار ٢٧٪ من قيمتها فقيمهم لأمر للملاك الذين كانوا هم أنفسهم مدينين وحرموا من فوائد الرهون التى كانوا يعتمدون عليها للوفاء بما عليهم من التزامات . غير أن هذا التضخم أو أنه قد حصل لكان ضربة ثأنية شديدة الوقع على الملاك الذين أقرضوا الأجار أموالاً ؛ وإذا كان قد أفاد طائفة ما فهى طائفة التجار لا طائفة الملاك أو الفلاحين الذين ألغى من قبل ما على أملاكهم من رهون . ولعل صولون لم يفكر قط فى تخفيض قيمة العملة ، بل كل ما فعله هو أنه أراد أن يستبدل بالمعيار النقدى الذى وجد أنه ييسر تجاره مع بلاد الإليوبويز معياراً آخر ييسر الأعمال التجارية مع أسواق أيونيا الغنية المطردة الاتساع والتى كان معيار النقد العوبى مستعملاً فيها (٦٣) .

على جميع السكان الأحرار بلا تمييز بينهم ؛ فأصبح الأغنياء والفقراء على السواء مقيدين بقيود واحدة تفرض عليهم عموماً واحدة . وإذا كان صولون قد عرف أنه لم يستطع تنفيذ إصلاحاته إلا بمعونة طبقتى التجار والصناع ، ورغبة منه في أن يجعل لهم حظاً في حكومة البلاد ، فقد قسم سكان أتكا أربع مجموعات على أساس ثروتهم : الأولى أصحاب الخمسمائة بشل (*oushel*\*) وهم الذين يصل دخلهم السنوي إلى خمسمائة مكيال من الحاصلات أو ما يعادلها (*pentacosiodemni*\*\*) ، والثانية هم الهبي (*hippes*) الذين يتراوح دخلهم بين ثلثمائة وخمسمائة بشل . والثالثة جماعة الزوجتاي (*zeugitai*) الذين يتراوح دخلهم بين مائتين وثلثمائة ، والرابعة جماعة اليتي (*hetes*) وتشمل غير هؤلاء كلهم من الأحرار . وكانت مظاهر الشرف والتكريم تتناسب مع ما يؤدي من الضرائب فلا يستمتع إنسان بالأولى دون أن يتحمل عبء الثانيه ؛ يضاف إلى هذا أن الضرائب التي تؤديها الطبقة الأولى كانت تفرض على ما يعادل دخلها السنوي اثني عشر مرة ؛ والطبقة الثانية على ما يعادل دخلها عشر مرات ، والثالثة على ما يعادل دخلها خمس مرات فقط ؛ أي أن ضريبة الأملاك كانت في واقع الأمر ضريبة دخل تصاعديّة<sup>(٦٥)</sup> . أما الطبقة الرابعة فكانت معفاة من الضرائب المقررة ( المباشرة ) . وكانت الطبقة الأولى وحدها هي التي يمكن اختيار رجالها إلى الأركونية وإلى قيادة الجيش ؛ أما الطبقة الثانية فكان من حقها أن يختار أفرادها إلى المناصب وإلى فرق الفرسان في الجندش ، وكانت الطبقة الثالثة تختص بالعمل في فرق المشاة الثقيلة ؛ وأما الرابعة فكان يطلب إليها أن تمد الدولة بالجنود اعاديين . وقد أضعف هذا التقسيم الفذ نظام

( \* ) البشل مكيال إنجليزي يعادل ثمانية جالونات .

( \*\* ) كان المدنس *medimnos* - المعادل لبشل ونصف تقريباً - يمد مساوياً في

قيمه النقدية لدرخة .

القرابة الذى كانت تعتمد عليه قوة الأبحاركية ؛ وأحل محله مبدأ جديداً هو مبدأ « التمراسيه Timocracy » ، أى حكم ذوى الشرف أو لمنزلة ، ويحدددهم صراحة ما لهم من ثروة تفرض عليها الضرائب . وكان حكم « بيلونوقراطى ( يتولاه المثرون ) » شبيه بهذا الحكم منتشرأ خلال القرن السادس كله وبعض القرن الخامس فى معظم المستعمرات اليونانية .

وقد أبى دستور صولون على رأس الدولة مجلس الشيوخ القديم مجلس الأريوبجوس ، بعد أن جرده من بعض ما كان له من سلطان وما كان يمتاز به من عزلة ، وبعد أن أصبح مفتوح الأبواب لجميع أفراد الطبقة الأولى ، ولكنه ظل مع ذلك صاحب السلطة العليا المهمن على سلوك الناس وعلى موظفى الدولة (٦٦) . ثم أنشأ بولا boule أو مجلساً جديداً مولفاً من أربع مائة عضوى مجلس الشيوخ فى السلطة تختار له كل طبقة من الطبقات الأربع مائة عضو . وكان هذا المجلس يختار جميع الأعمال التى تعرض على الجمعية ويبحثها ويعدها . ووضع صولون فى منزلة أذى من هذا النظام الأبحركى الأعلى الذى استرضى به الأقوياء ، أنظمة ديمقراطية فى أساسها ، ولعله كان مدفوعاً إلى ذلك بحسن النية ورغبة العمل على خير الطبقات الدنيا . فقد أعاد إلى الحياة الإكليزيا leklesia ( الجمعية ) القديمة التى كانت قائمة فى أيام هومر ودعا كل المواطنين إلى الاشتراك فى مناقشتها . وكانت هذه الجمعية تختار كل عام من بين ذوى الخمسمائة بشل الأركونين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعينون من قبل مجلس الأريوبجوس ؛ وكان من حقها أن تستجوب هؤلاء الموظفين فى أى وقت ، وتتهمهم ، وتعاقبهم ؛ وإذا ما انقضت مدة توليهم مناصبهم ، كانت تبحث فى مسلكهم فى السنة التى تولوا العمل فيها ، وكان لها إذا شاءت أن تحرمهم حقهم فى أن يكونوا أعضاء فى مجلس الشيوخ . وأهم من هذا الحق ، وإن لم يبد وقتئذ كذلك ، مساواة الطبقات الدنيا للطبقات العليا فى حق الاختيار بالقرعة إلى الهيلياثا heliaea ، وهى هيئة من خمسة آلاف

من المحلفين تتألف منهم أنواع المحاكم التي تنظر في جميع القضايا عدا قضايا التمل والحيانة ، والتي يصح أن ترفع إليها الشكاوى من أعمال الحكام على اختلاف أنواعها . ويقول أرسطاطاليس في هذا : « يظن البعض أن صولون قد تعمد لإدخال الغموض على قوانينه ليمكن العامة من استخدام سلطتهم القضائية لتقوية نفوذهم السياسى » ؛ ذلك أنه « لما كان الخلاف بينهم وبين الحكام لا يمكن تسويته بتطبيق حرفية القانون ، فقد كان عليهم أن يعرضوا جميع منازعاتهم على القضاة ، وكان هؤلاء إلى حد ما سادة القوانين (٦٧) » كما يقول أفلوطرخس نفسه . وقد كان حق الاستئناف إلى المحاكم الشعبية الإسفين الذى وسع نطاق الديمقراطية الأثينية ، كما كان حصنها الحصين فى مستقبل الأيام .

وأضاف صولون إلى هذا التشريع الأساسى ، وهو أهم ما فى تاريخ أثينة من تشريعات ، طائفة أخرى من الشرائع المختلفة يقصد بها معالجة مشاكل الوقت التى لم تكن لها مثل ما للمسائل الأساسية السابقة من خطر . وكان أول ما فعله أن جعل الثروة الفردية التى قرنها العادات قبل معترفاً بها قانوناً . وإذا كان للرجل أولاد كان عليه أن يقسم ثروته بينهم قبل وفاته ؛ فإذا لم يكن له أولاد كان له أن يوصى لأى إنسان بأملكه التى كانت تؤول حتى ذلك الوقت ومن تلقاها نفسها لقبيلته (٦٨) . فبقوانين صولون بدأ حق الوصية وقانونها . وإذا كان هو من رجال الأعمال فقد أراد أن يشجع التجارة والصناعة بمنح حق المواطنة لجميع الأجانب الذين يحدقون حرفة ما والذين يأتون مع أسرهم ليقبموا بصفة دائمة فى أثينة . وحرّم تصدير الغلات الزراعية عدا زيت الزيتون ، وكان يرجو بهذا أن يحول الناس من إنتاج المحصولات الزراعية الزائدة على الحاجة إلى الاشتغال بالصناعة . وسن قانوناً يقضى بأن الولد غير ملزم بمساعدة أبيه إذا كان هذا الأب لم يعلمه حرفة خاصة (٦٩) . ويرجع الفضل فيما نالته الصناعات من تشريف

عظيم ومكانة سامية إلى صولون - لا إلى من جاء بعده من الأثينيين .  
ولم يحجم صولون عن التشريع في ذلك الميدان الخطر ميدان الأخلاق .  
والآداب العامة . فقد كان يعد الإصرار على البطالة جريمة ، ولم يكن  
يسمح للرجل الذي يعيش عيشة الدعارة والنموجور أن يتقدم إلى الجمعية  
بطلب (٧٠) ، وجعل البغاء قانونياً وفرض على البغاة ضريبة ، وأنشأ مواخير  
عامة ، مرخصة من قبل الدولة وخاضعة لرقابتها . وشاد هيكللاً لأفرديتي  
بندموس من إيراد هذه المواخير . وقد تغنى بمدحه رجل من معاصريه  
يدين بما يدين به لكى Lecky المؤرخ الأيرلنسى المعروف فقال :  
« مرحباً بك يا صولون ! لقد ابتعت المومسات لخير المدينة ، ولوقاية أخلاق  
المدينة الغاصة بالشبان الأشداء ، ولولا تشريعك الحكيم ، لضايق هؤلاء  
الشبان فضليات النساء ونشروا في المدينة الفساد والاضطراب (٧١) » .  
وفرض غرامة قدرها مائة درخمة على من يعتدى على عرض امرأة حرة ،  
وهي عقوبة أقل كثيراً مما في قوانين دراكون ، ولكنه أباح لمن يمسك  
برجل زان متلبس بجريمته أن يقتله لساعته . وحدد بائناً العرائس  
ومهورهن لرغبته في أن يكون الباعث على الزواج هو الحب المتبادل  
بين الزوجين والرغبة في النسل وتربية الأولاد ، ونهى النساء عن أن  
يكون لهن من الملابس أكثر من ثلاث حلل ، وكان في ثقته بقدرته  
على تنفيذ قانونه شبيهاً بالأطفال في ثقتهم بقدرتهم على تنفيذ أوامره  
ونواهيهم . ولقد طلب إليه أن يسن قانوناً يضيق به على العزاب ، ولكنه  
لم يجب هذا الطلب وقال في تبرير عدم إجابته إن « الزوجة عبء ثقيل  
الحمل (٧٢) » . وقد جعل اغتياب الموتى جريمة ، وكذلك كان اغتياب الأحياء  
في الهياكل والمحاكم ، ومكاتب الموظفين العموميين ، وفي ساحات الألعاب ؛  
ولكنه حتى هو نفسه لم يستطع أن يمسك ألسنة الناس في أثينة حيث كانت  
الغسة والنممة تبدوان كما تبدوان عندنا الآن من مستلزمات الديمقراطية

وقد قرر أن الذين يبقون على الحياد في أوقات الفتن يفقدون حقهم بوصف كونهم مواطنين ، وذلك لأنه كان يرى أن عدم اهتمام الجمهور بالشئون العامة يؤدي إلى خراب الدولة . وحرّم الاحتفالات النخمة ، والقرايين الكثيرة النفقة ، والنذب الطويل في الجنائز : وحدد مقدار ما يدفن مع الأموات من متاع ، وسن ذلك القانون العادل الذي ظل مصدراً لبسالة الأثينيين أجيالاً طويلة وهو القانون الذي فرض على الحكومة تربية أبناء من يقتلون في الحرب وتعليمهم على نفقتها .

وأضاف صولون إلى كل شريعة من شرائعه عقوبات كانت أخف من عقوبات دراكون ولكنها مع ذلك صارمة ، وجعل من حق كل مواطن أن يقاضى أى شخص يرى أنه ارتكب جريمة ما . وأراد أن يعرف الناس قوانينه حق المعرفة وأن يطيعوها ويلتزموا العمل بها فكتبها في ساحة الأركون الديني ( أركون باسليوس ) على ملفات أو منشورات خشبية تدار وتقرأ . ولم يدع كما ادعى ليقورغ ومينوس ، وحمورابي ، ونحوهما ، أن إلها ما قد أنزل عليه هذه الشرائع ؛ وهذا العمل في حد ذاته مما يكشف عن مزاج ذلك العصر ومزاج المدينة ومزاج صولون نفسه . ولما طلب إليه أن يجعل نفسه حاكماً بأمره مدى الحياة أبى وقال إن الدكتاتورية « مقام جميل حقاً ، ولكن ليس ثمة طريق للنزول منه » (٧٣) . وكان المتطرفون ينتقدونه لأنه لم يسو بين الناس في الملك وفي السلطان ، والحافظون ينددون به لأنه منح العامة الحقوق السياسية وأجلسهم فوق منصة القضاء ؛ بل إن صديقه أنكركسيس Anachrsis ، الحكيم السكوذي صاحب الأطوار الشاذة ، قد سخر من دستورهِ الجديبد وقال في ذلك إن الحكماء قد أصبحوا يترافعون ، والحمقى يحكمون ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يمكن أن تقوم بين الناس عدالة دائمة لأن في وسع الأقوياء والمهرة أن يجوروا أى قانون يسن لكى يتفق مع مصلحتهم الخاصة ؛ ولأن القانون أشبه بيت العنكبوت يقتنص الذباب الصغير ويفلت منه البق الكبير . وكان صولون

يتقبل كل هذا النقد بقبول حسن ، ويعترف بما في شرائعه من نقص ؛ ولما سئل هل سن للأثنيين أحسن الشرائع أجاب « لا ، بل » سنت لهم « خير ما يستطيعون أن يُعطوه » - أى خير ما يمكن إقناع الجماعات والمصالح المتضاربة في أثينة بأن تقبله كلها في ذلك الوقت بالذات . وقد اتبع الطريق الأوسط وأبقى بذلك على الدولة ؛ وكان تلميذاً ناجحاً من تلاميذ أرسطاطاليس قبل أن يولد هذا الفيلسوف الاستجيري Stagirite . وتمزوا إليه الرواية الشعار الذى نقش على هيكل أبلو في دلفي وهو metenagan أى لا إفراط فى شئ<sup>(٧٥)</sup> ، وقد أجمع اليونان على وضعه بين السبعة الحكماء .

وخير شاهد على حكمته هو ما كان لتشريعه من أثر خالد ، فقد استطاع شيشرون ، على الرغم مما حدث فى أثينة من آلاف التغيرات والتطورات ، وبالرغم مما قام فيها من دكتاتوريات وانقلابات سطحية ، استطاع على الرغم من هذا أن يقول بعد خمسة قرون من عهد صولون إن شرائعه كانت لا تزال نافذة فى أثينة<sup>(٧٦)</sup> . ولقد كان عمله من الوجهة القضائية الحد الفاصل بين حكم المراسيم المتغيرة التى لا عداد لها وبين بداية حكم الشرائع المدونة الدائمة . ولما سأله سائل متى تكون الدولة حسنة النظام ثابتة البنيان أجاب بقوله : « حين يطيع المحكومون الحكام ، ويطيع الحكام القوانين<sup>(٧٧)</sup> » . وبفضل قوانينه تحرر زراع أتكا من الاسترقاق الإقطاعى ، وقامت فيها طبقة من الزراع الملاك ، كان امتلاكهم الأرض هو الذى جعل الجيوش الأثينية الصغيرة قادرة على الاحتفاظ بحرية المدينة أجيالاً طويلة ، ولما اقترح فى نهاية حرب البلوپونيز قصر الحقوق السياسية على الملاك الأحرار لم يوجد من الأحرار الراشدين فى أتكا كلها من لا ينطبق على هذا الشرط إلا خمسة آلاف لا أكثر<sup>(٧٨)</sup> . هذا إلى أن التجارة والصناعة قد تحررتا فى الوقت نفسه من القيود السياسية التى كانت مفروضة عليهما ، ومن العوائق المالية ، وبذلك بدأ فيهما ذلك التطور القوى النشط

الذى أصبحت أثينة بفضلها الرعيمة التجارية في بلاد البحر المتوسط وكانت أرسطراطية الثراء الحديدية ترفع من شأن الذكاء لا من شأن المولد ، وتشجع العلم والتعليم ، وتمهيد السبيل مادياً وعقلياً للأعمال الثقافية العظيمة التي تمت في العصر الذهبي .

ولما بلغ صولون في عام ٥٧٢ سن السادسة والستين أثر الحياة الخاصة ، فاعتزل منصبه بعد أن ظل أركونا خمسة وعشرين عاماً ، وبعد أن أخذ العهد على أثينة ، بأيمان أقسمها .وظفوها ، أن تطيع قوانينه بلا تغيير فيها ولا تبديل مدة عشر سنين<sup>(٧٩)</sup> ؛ وسافر بعدئذ ليطالع على حضارة مصر والشرق ، ويألوح أن ذلك الوقت هو الذي قال فيه قائلة الذائعة الصيت - « إني لتكبر سنى وما فنتت أتعلم »<sup>(٨٠)</sup> . ويقول أفلوطرخس إنه درس التاريخ في عين شمس ( هليوبوليس ) على الكهنة ، ويقال إنه سمع منهم عن أطلنطيس Atlantis القارة الغارقة ، التي قص قصتها في ملحمة لم يتمها ، افتتن بها أفلاطون الواسع الخيال بعد مائتي عام من عصره . وسافر من مصر إلى قبرص ووضع القوانين لتلك المدينة التي غيرت اسمها من قبرص إلى Soli تكريماً له<sup>(٨١)</sup> . ويصف هيرودوت<sup>(١٨)</sup> أفلوطرخس حديثه مع كروسس ملك ليديا في سرديس - وما أقوى ذاكرتهما التي أمكنتهما من أن يقصا هذا الحديث - فيرويا كيف خرج هذا الرجل صاحب الثروة المتقطعة النظر مزداناً بكل ما عنده ، وسأل صولون ألا يرى أنه ، كروسس ، رجل سعيد ، وكيف أجابه صولون بصفاقته اليونانية قائلاً : « إن الآلهة أيها الملك قد وهبت اليونان كل ما وهبتهم من النعم بقسط معتدل ؛ وكذلك حكمتنا فهي حكمة مرحة معتدلة ، لا حكمة نبيلة ملكية ؛ وإذا ما قلبنا النظر في البلايا الكثيرة التي تكتنف الناس في جميع الظروف فإن هذا الاعتدال

---

( \* ) يقص ديوجينيز ليرتيس هذه القصة عن صولون في قليقية - وهي البلدة التي كان احتفاظها باللغة اليونانية القديمة إلى أيام الإسكندر سبباً في وجود لفظ **solecism** ومعناه الخطأ في الكلام أو خرق حرمة الآداب .

ينأى بنا عن أن نصطنع الصغار فيما نتمتع به في وقتنا الحاضر ، أو أن نعجب بما يتقلب فيه أى إنسان من سعادة ، قد تتبدل إلى نقيضها على مر الأيام . ذلك أن المستقبل المجهول قد يأتي بما لا يحصى من مختلف الحظوظ ؛ ونحن لا نسمى إنساناً سعيداً إلا إذا وهبته الآلهة السعادة إلى آخر أيامه . وإن في وصف الرجل الذى لا يزال في منتصف حياته وأخطارها بأنه سعيد من الخطأ والمخاطرة مثل ما فى توزيع المصارع بتاج النصر وإعلان فوزه وهو لا يزال فى حلبة الصراع (٨٢) .

وهذا العرض الشائق لما يطلق عليه كتاب المسرحيات اليونان اسم هيريس hybris - أى الرخاء الوقح - لينم عن حكمة أفلوطينس الشاملة . وكل ما نستطيع أن نقوله فيها إنها قد صيغت فى ألفاظ أجمل من الألفاظ التى صاغها فيها هيرودوت ، وإن كلا النصين فى أغلب الظن من نسج الخيال . وما من شك فى أن الطريقة التى مات بها صولون وكروسس تبرر ما فى هذه العظة من تشكك . فقد خلع قورش كروسس فى عام ٥٤٦ ، وعرف الرجل ( إذا صح لنا أن نعيد صياغة عظة هيرودوت فى ألفاظ دانتى ) وهو فى بؤسه مرارة تذكر أيام مجده السعيدة وما كان فى تحذير الحكيم اليونانى من صرامة . أما صولون فإنه بعد أن عاد إلى أثينة لياق فيها الموت ، شهد فى آخر أيامه القضاء على دستوره ، وإقامة حكم دكتاتورى على أنقاضه ، وإخفاق كل ما بذله من جهود وإن كان إخفاقاً فى ظاهر الأمر فحسب .

#### ٤ - دكتاتورية نيبستراتنس

لما غادر صولون أثينة - عادت الجماعات المتنازعة التى سيطر عليها مدى جيل كامل إلى ما كانت عليه من دسائس ومشاحنات سياسية متأصلة فى طبيعتها . وكان فيها ، كما كان فى أيام الانفعالات الشديدة فى الثورة الفرنسية ، ثلاثة أحزاب تسعى جاهدة ليكون منها صاحب السلطان الأقوى : « الشاطئ » وبتزعمه تجار الثغور الذين يميلون إلى صولون ؛ و « السهل »



(شكل ١٠) مرهبة عليها نقش يمثل أتيما وهرقل  
(متحف اللوفر بباريس)

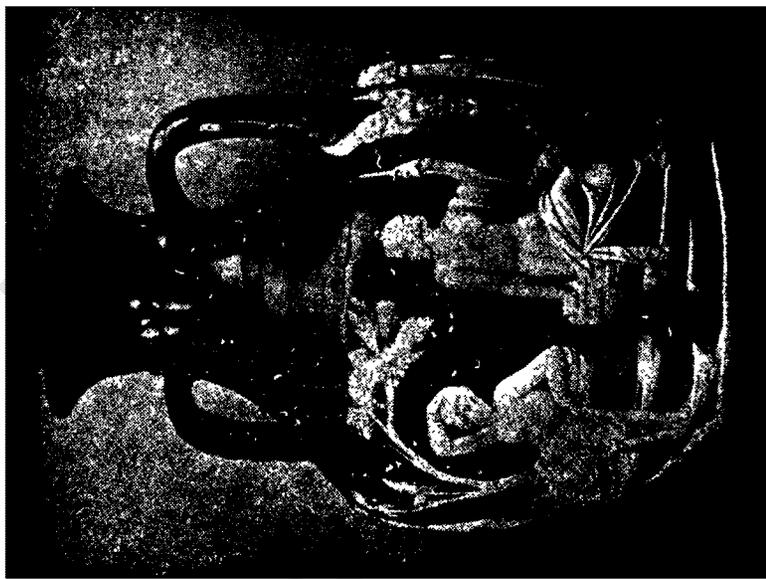
ويتزعمه ملاك الأراضي الذين يكرهون صولون ؛ و « الجبل » ويتألف من خليط من الفلاحين وعمال المدن ، وكانوا لايزالون يطالبون بإعادة توزيع الأراضي . ورضى بيسترانس ، كما رضى بركليز بعد مائة عام من ذلك الوقت ، أن يتزعم حزب العامة ، وإن كان هو من الأشراف مولداً ، وثروة ، وأخلاقاً ، وميولاً . وكشف في إحدى جلسات الجمعية عن جرح قال إنه أصابه به أعداء الشعب ، وطلب أن يعين له حرس خاص ؛ واحتج صولون على هذا الطلب ، لأنه كان يعرف ما عليه قريبه من دهاء ، وظن أن الجرح قد أحدثه هو في جسمه ، وأن الحرس الخاص سيمهد السبيل إلى الدكتاتورية ، وقال محذراً الأئينيين : « يا رجال أئينة ! إنى أكثر من بعضكم حكمة ، وأكثر من البعض الآخر شجاعة : أكثر حكمة ممن لا يدركون غير بيسترانس ، وأكثر شجاعة ممن يدركونها ولكنهم يخوفهم بسكتون عنها<sup>(٨٠)</sup> » . ولكن الجمعية رغم هذا التحذير وافقت على أن يكون له حرس مؤلف من خمسين رجلاً ، غير أن بيسترانس لم يكف بخمسين - بل جمع أربعائة ، واستولى على الأكر وپول ، وأعلن نفسه حاكماً بأمره . ونشر صولون على الأئينيين رأيه فيهم فقال إن « كل واحد منكم يمشى وهو منفرد بخطى الثعلب فإذا اجتمعتم كنتم إوزا<sup>(٨١)</sup> » ، ثم وضع أسلحته ودرعه على باب بيته إشارة إلى أنه لم يعد يهتم بالسياسة ، وخص أيامه الباقية بقرض الشعر .

واتخذت قوات أصحاب المال من حزبي الشاطي والسهل زمناً ما ، وطردت الطاغية من البلاد (٥٥٦) ، ولكن بيسترانس اصططح مع حزب الشاطي سراً ، وعاد إلى أئينة في ظروف يلوح أنها تؤيد رأى صولون في عقلية الجماعة . وأكبر الظن أن حزب الشاطي قد غض الطرف عن هذه العودة . وأقبلت امرأة طويلة حسناء مدرعة بدرع أئينا إلهة المدينة وعليها ثيابها ، تجلس في مركبة جلسة العظمة والكبرياء ، وتقود جيش بيسترانس إلى المدنة ، بينما كان المبهشرون ينادون أن ربة المدينة وحاميتها أخذت تعيد

إليه بنفسها سلطته (٦٥٠) . ويقول هيرودوت في هذا : « ولم يكن لدى أهل المدينة أقل شك في أن هذه المرأة هي الإلهة نفسها ، فخرّوا سجداً أمامها ، ورضوا بعودة بيستراتس<sup>(٨٥)</sup> » . وانقلب زعماء الشاطئ عليه مرة أخرى ، وأخرجوه من المدينة مرة ثانية (٥٤٩) ، ولكنه عاد إليها من جديد في عام ٥٤٦ . وهزم الجنود الذين سيروا لقتاله . وبقي في هذه المرة حاكماً بأمره تسعة عشر عاماً ، كادت سياسته وخطاه الحكيمه في خلالها أن تكفر عن الأساليب الروائية غير الشريفة التي استولى بها على أزمة الحكم .

وكانت أخلاق بيستراتس مزيجاً نادراً من الثقافة ، وقوة العقل ، ومن الكفافية الإدارية ، والجاهلية الشخصية . وكان في وسعه أن يقاتل دون أن تأخذه بأعدائه رحمة ، وأن يعنف عنهم دون ما تردد ؛ وكان في مقدوره أن يعيش في أكثر التيارات الفكرية تقدماً في أيامه ، وأن يحكم دون أن يتأثر بما يتأثر به الرجل المفكر من تردد في الهدف وإحجام عن البت في الأمور . وكان دمث الأخلاق ، رحيماً في أحكامه ، كريماً في معاملته جميع الناس . ويقول فيه أرسطاطاليس : « وكان حكمه معتدلاً ، وسار فيه سيرة السياسي لاسيرة الرجل الظالم المستبد »<sup>(٨٦)</sup> . ولم ينتقم إلا من عدد قليل من أعدائه الجدد ؛ ولكنه نفى من البلاد من لم يستطع استرضاءهم من معارضيه ، وقسم ضياعهم على الفقراء . وأصلح الجيش ، وأنشأ الأسطول ، ليصد بهما الاعتداء من خارج البلاد ؛ وجعل أثينة بمنجاة من الحرب ، ونشر في المدينة التي لم تخرج من غمار المنازعات الطائفية إلا من عهد قريب لواء الأمن والنظام والرضا والطمأنينة . حتى أصبح من الأقوال التي تألف الأذن سماعها أنه أعاد إليها عصر كرونوس الذهبي .

وأدهش الناس كلهم باحتفاظه بدستور صولون وعدم إدخاله شيئاً على تفاصيله إلا القليل الذي لا يستحق الذكر . ذلك أنه كان يعرف ، كما عرف أغسطس من بعده ، كيف يرين الدكتاتورية ويؤيدها بالمنح والأشكال



( شكل ١١ ) مزهرية بورتلند  
( المتحف البريطاني )



( شكل ١٢ ) مزهرية فرانسا  
( متحف الآثار بطورنيس )

الديمقراطية . لقد ظل الأركونون يختارون كما كانوا يختارون من قبل ، وظلت الجمعية ، والمحاكم الشعبية ، ومجلس الأربعة ، ومجلس شيوخ الأربوبجوس تجتمع وتقوم بواجباتها كما كانت تفعل قبل أيامه ، وكل ما جد أن اقتراحات بيسستراتس كانت تلقى فيها كلها أذناً واعية . ولما أن اتهمه أحد المواطنين بالقتل مثل أمام مجلس الشيوخ وعرض عليه أن يتقدم للمحاكمة ، فما كان من الشاكي إلا أن قرر أنه لا يستمسك بالتهمة . ورضى الناس بحكمه على مر السنين ، وكان أكثرهم رضا أقلهم ثراء ، وما لبثوا أن تفاخروا به ، وفي آخر الأمر أحبوه وأولعوا به ، وأكبر الظن أن أئينة كانت بعد صولون في حاجة إلى رجل مثل بيسستراتس أوتى من الشدة ما يستطيع به أن يستبدل بما كان في الحياة الأئينة من اضطراب نظاماً واستقراراً ، وأن يعود الناس بالإكراه في بادئ الأمر عادات النظام وطاعة القانون ، وهما للمجتمع البشرى كالهيكال العظمى للحيوان يكسبانه الشكل والقوة وإن لم يكسبها الحياة المبدعة الخلاقة . ولما زالت الدكتاتوريه بعد جيل من ذلك الوقت ، بقيت عادات النظام ، وبقي معها الإطار الخارجى لدستور صولون ، لترتئها الديمقراطية . فكأن بيسستراتس لم يأت ليحو القانون بل ليوطد أركانه ، وربما كان قد فعل ذلك على غير علم منه .

أما خططه الاقتصادية فقد واصل بها تحرير الشعب ، وهو التحرير الذى بدأه صولون . وقد حل المشكلة الزراعية بأن وزع على الفقراء ما كانت تمتلكه الدولة من الأراضى ، وما كان يمتلكه منها الأشراف الذين نفوا من البلاد ، وهكذا استقر فى الأراضى الزراعية آلاف من الأئنيين الذين كانت بطالتهم خطراً على البلاد ، وظلت أنكا بعدئذ قروناً طوالاً لا نسمع فيها عن تدمير بين الزراع<sup>(٨٧)</sup> . وأوجد عملاً للمحتاجين فيما شرع فيه من منشآت متمسعة النطاق ، فقد أنشأ سلسلة من الحجارى لنقل ماء الشرب إلى المدينة ، ومن الطرق المعبدة ، وشاد هياكل عظيمة للآفة ، وشجع استخراج الفضة من مناجم لوريوم Laurium ، وسك

للبلاد عملة جديدة خاصة بها . وجاء بالمال اللازم لهذه الأعمال بأن فرض ضريبة قدرها عشرة في المائة على جميع المحصولات الزراعية ، ويبدو أنه خفض هذه الضريبة فيما بعد إلى خمسة في المائة (٨٨) . ووضع مشروعاً لإقامة مستعمرات في النقط الحربية الهامة على الدردنيل ، وعقد معاهدات تجارية مع كثير من الدول . وراجت التجارة في أيامه رواجاً عظيماً ، وازدادت الثروة ، ولم تكن زيادتها بين عدد قليل من الناس بل شملت الأهلين بوجه عام ؛ فقد أصبح الفقراء أقل فقراً ، ولم يعد الأغنياء أقل غنى ؛ مما كانوا ؛ وامتنع تركيز الثروة الذي كاد يقذف بالمدينة في أتون الحرب الأهلية ؛ وانتشر الرخاء وسنحت له الفرص فوضعت بذلك الأسس الاقتصادية للديمقراطية الأثينية .

وتبدلت أحوال أثينة جسماً وعقلاً في أيام بيستراتس وولده فقد كانت إلى ما قبل أيامهما بلدة في المرتبة الثانية بين بلاد العالم اليوناني ، تسبقها ميليتس وإفسوس ، ومثليبي ، وسرقوسة ، في الثروة والثقافة ، والحوية والتنتاج العقلي . أما في أيامهما فقد قامت فيها أبنية من الحجر والرخام شاهدة بما كانت فيه وقتئذ من بهجة ونعيم ، وزين معبد أثينا القديم القائم على الأكروبرول بأن ضم إليه رواق دورى الطراز ، وبنى العمل في هيكل زيوس الأولمبي الذي تزين أعمدته الكورنثية الفخمة ، حتى وهى محطة ، الطريق الممتد بين أثينة ومرفذا . وأقام الألعاب الأثينية الجامعة ، وخلع عليها الصبغة اليونانية العامة ، فأولى المدينة بذلك شرفاً عظيماً ، فضلاً عما بعته فيها من النشاط روئيتها وجوها أجنبية ، ومباريات وأساليب غير أساليبها ، وفي أيامه أصبح عيد أثينة الجامع عيداً قومياً عاماً للشعب اليوناني كله ، ولا يزال موكبه العظيم يتحراه أمامنا على إفريز البارثون . وقد أقبل على بلاطه ، بنهض منشآت العامة وحياته الخاصة ، المثالون والمهندسون ، والشعراء ، وجمع في قصره مكتبة من أولى المكتبات التي أنشئت في بلاد اليونان . وقد عين لجنة أعطت للإلياذة والأوديسة الصورتين اللتين

تعرفهما بهما الآن . وبفضل إدارته الرشيدة وتشجيعه العظيم ارتقى تسييس وغيره من الكتاب بالثقيل من تقليد هزلى ساخر إلى عمل فنى قابل لأن يصل إلى ذروة الكمال فى العهد الثلاثى العظيم من عهود المسرح الأثينى .

ولم يكن « استبداد » بيسستراتس إلا جزءاً من حركة عامة فى المدن التجارية اللشيطلة التى كانت قائمة فى بلاد اليونان فى القرن السادس ، والتى كانت تسمى لكى تستبدل بالحكم الإقطاعى على أيدى الملاك الأشراف السلطان السياسى للطبقة الوسطى المتحالفة مؤقتاً مع الطبقات الفقيرة (\*) . وكانت أهم الظروف التى مهدت لهذه الدكتاتوريات هى تركيز الثروة فى أيدى قليلة تركيزاً وخيم العاقبة ، وعجز الأغنياء عن الاتفاق على وسيلة للتوفيق بينهم وبين غيرهم من الطبقات . وإذ لم يكن للفقراء بد من أن يثاروا بين المال والحرية السياسية ، فإنهم كالأغنياء سواء بسواء يؤثرون المال على الحرية ، والحرية السياسية التى تستطيع البقاء وهى التى تشذب بحيث تمنع الأغنياء أن يستخدموا ما عندهم من مقدرة أو دهاء فى تجريد الفقراء مما عندهم ، وتمنع الفقراء أن ينهبوا الأغنياء بعنفهم أو بأصواتهم . ومن ثم كانت لسبيل إلى السلطة فى المدن التجارية اليونانية ممهدة سهلة : فاعلى من يريد لها إلا أن يهاجم الأشراف ، ويدافع عن الفقراء ، ويتفاهم مع الطبقات الوسطى (٨٩) . فإذا وصل الطاغية إلى ما يرجوه من سلطان أثنى الديون ، أو صادر الضياع الواسعة ، وفرض الضرائب على الأغنياء ليجول بحصيلتها ما ينشئه من الأشغال العامة ، أو أعاد توزيع الثروة المركزة فى أيدى قليلة بوسيلة أخرى غير هذه الوسيلة . وفى الوقت الذى يضم فيه اجهاج إلى جانبه

---

( \* ) والكلمة الإنجليزية tyrant أى المستبد أو الطاغية كلمة ليدية ، ولعلها مشتقة من اسم تيرا Tyrrha المدينة الليدية . ومعنى هذا اللفظ هو قلعة ، ولعله ذو صلة بعيدة بلفظ Tower الإنجليزية ( ولفظه بترينس اليونانى ) . ويبدو أن أول من وصفه هو جيجيس Oygae ملك ليديا .

بهذه الوسائل وأشباهاها ، يحصل على معونة رجال الأعمال بتشجيع التجارة عن طريق العملة الرسمية وعقد المعاهدات التجارية الأجنبية ، ورفع المنزلة الاجتماعية للطبقات الوسطى . وإذ كان الحاكم بأمره مضطراً إلى الاعتماد على حب الشعب له لا على حقه الموروث في السلطان ، فإن الدكتاتوريات كانت في الأغلب الأعم تتجنب الحروب وتناصر الدين ، وتحفظ النظام ، وتحث على الأخلاق الفاضلة ، وترفع منزلة النساء في المجتمع ، وتشجع الفنون ، وتنفق المال بسخاء في تجميل مدائنها . والطغاة يفعلون هذا كله في كثير من الأحيان وهم محتفظون بصور الحكومة الشعبية وأساليبها في العمل ، ومن ثم كان الناس حتى في عهود الاستبداد يتعلمون طرائق الحرية . وبعد أن تنتهى الدكتاتورية من تحطيم الأرستقراطية كان الشعب يحطم الدكتاتورية ، ولم يكن يحتاج إلى تغييرات كثيرة ليجعل ديمقراطية الأحرار قائمة شكلاً وعملاً .

### ٥ - قيام الديمقراطية

لما توفى بيستراتس في عام ٥٢٧ ورث أبناؤه السلطة من بعده ، وكانت حكمته قد اجتازت بنجاح كل اختبار إلا اختباراً واحداً ، فقد أخفق في كسب حب أبناؤه له . وقد وعد هيباس أن يكون عادلاً عاقلاً في حكمه ، وظل ثلاثة عشر عاماً يسير على نهج أبيه . وكان أخوه الأصغر مولعاً بالحب والشعر ؛ ولم يكن في هذا من الضرر أكثر من تبديد المال في هاتين الهوايتين ؛ وكان هو الذى استقدم أنكريون Anacreon وسمندس Simonides إلى أثينة . غير أن الأثينيين لم يكونوا راضين كل الرضا عن أن يروا أزمة الحكم تنتقل بغير رضاهم إلى ابني بيستراتس ، وأخذوا يدركون أن الدكتاتورية قد مكنت لهم في كل شيء إلا حافز الحرية . على أن أثينة رغم هذا كانت تتمتع بالرفاهية ورغد العيش ، ولولا أن الحب اليوناني الحقيقي يسير في طريق وعرشائك لاستطال

حكم هيباس الهادئ حتى يصل إلى خاتمته السلمية الطبيعية . وكان أرسطوجيتون Aristogeiton وهو رجل كهل قد كسب حب الفتي هرمديوس Harmodius وهو وقتئذ « في ريعان الشباب ونضارته » كما يقول توكيديدس<sup>(٩٠)</sup> ، ولكن هباركس ، وهو أيضاً ممن لا يستحون أن يجبوأ الغلمان ، كان يسعى هو الآخر ليتجنب إلى هذا الشاب ؛ فلما سمع أرسطوجيتون بهذا اعزم أن يقتل هباركس ويعمل في الوقت ذاته على حماية نفسه بقلب الحكومة الاستبدادية ، وانضم إليه في هذه المؤامرة هرمودديوس وغيره من الأثينيين ( ٥١٤ ) واغتالوا هباركس وهو يعد العدة لموكب الألعاب الأثينية الجامعة ؛ ولكن هيباس أفلت منهم ودبر قتلهم . ومما زاد الأمور تعقيداً أن لينا Leana عشيقة هرمديوس ماتت ميتة الشجعان أثناء تعذيبهم إياها ، لأنها أبت أن تغدر بالباقيين من المتآمرين ؛ وإذا كان لنا أن نصدق الرواية اليونانية فإنها قطعت طرف لسانها وبصقته في وجه معذبيها لتؤكد لهم أنها لن تجيب عن أسئلتهم<sup>(٩١)</sup> .

وارتاع هيباس لهذه الثورة ، وإن كان الأهلون لم يؤيدوها تأييداً ظاهراً ، ودفعه هذا الروح إلى أن يستبدل بحكمه الرحيم حكماً طابعه القمع ، والتجسس والإرهاب . وكان في مقدور الأثينيين ، بعد أن نعموا بالرخاء جيلاً كاملاً ، أن يطلبوا الآن نرف الحرية ، وزادت صرخة المطالبة بها دويماً كلما زاد الطغيان قسوة ؛ واستحال هرمديوس وأرسطوجيتون في خيال الشعب شهيدين من شهداء الحرية بعد أن لم يكونا إلا متآمرين يمحكان مؤامرة مبعثها الحب والهيام لا الديمقراطية<sup>(\*)</sup> . ورأى الألكميونيون في دلفي الذين نفاهم بيسستراتس من البلاد الفرصة سانحة لهم ، فجمعوا جيشاً ، وزحفوا به على أثينة ،

( \* ) ليس من حق الإنسان أن يعجب من أنهما يمثلان طبقة الأشراف الناصبة ، كما كان بروتس وكاميس يمثلان هذه الطبقة في رومة . وقد صار بروتس أيضاً بطل ثورة ، بعد أن طمس تاريخه مدى ثمانية عشر قرناً .

وأعلنوا أنهم لا يقصدون إلا خلع هيياس . ورشوا في الوقت نفسه الناطق بلسان الوحي في بيتيا لكي يعلن لكل من يستشيريه من الاسبارطيين أن من واجب اسبارطة أن تقضى على حكومة الطغيان في أثينة . وقاوم هيياس قوى الألكميونيين مقاومة عنيفة موفقة ، حتى انضم إليهم جيش لسديموني ، فانسحب من الميدان واعتصم بالأريوبنجوس . وأراد أن يؤمن أبناءه على حياتهم إذا ما قُتل هو ، فأخرجهم سراً من أثينة ؛ ولكن الغزاة ألقوا القبض عليهم ، وافتداهم هيياس بأن قبل النزول عن الحكم والنفي ( ٥١٠ ) . ودخل الألكميونيون وعلى رأسهم كليسنيز الباسل (\*) ، أثينة ظافرين ، وفي أعقابهم الأشراف المنفيون يستعدون للاحتفال باسترجاع أملاكهم وسلطانهم .

واختبر إسجوراس Isagoras في الانتخابات التي أعقبت هذه الحوادث ليكون كبير الأركونين ، ولكن كليسنيز أحد المرشحين المهزمين حرص الشعب على العصيان ، وأسقط إسجوراس ، وأقام دكتاتورية شعبية . وغزا الاسبارطيون أثينة مرة أخرى ، يريدون إعادة إسجوراس إلى منصبه ، ولكن الأثينيين قاوموا الغزو مقاومة عنيفة اضطرت الاسبارطيين إلى الارتداد ، فلما تم ذلك شرع كليسنيز ، الشريف الألكيموني ، ينشئ حكومة ديمقراطية ( ٥٠٧ ) .

وكان أول إصلاح له بمثابة معول دك به قواعد الارستقراطية الأتيكية - ونعني بها القبائل الأربع والبطون الثلاثمائة والستين التي كانت تتولى زعامتها ، جرياً على التقاليد التي دامت مئات السنين ، أقدمُ الأسر وأوفرها ثراء : فقد ألغى كليسنيز هذا التقسيم القائم على صلات القرابة واستبدل به تقسماً آخر إقليمياً جعل الأهلين بمقتضاه عشر قبائل تتألف كل

( \* ) وهو حفيد كليسنيز طاغية سكيون .

منها من عدد من المراكز يختلف باختلاف القبائل . وأراد أن يمنع التكتلات الجغرافية أو المهنية الشبيهة بأحزاب الجبل ، والشاطىء ، والسهل ، فألف كل قبيلة من عدد متساو من أقسام المدينة وسواحل البحر وداخلية البلاد . وعوض كل الأقسام الجديدة عن القداسة التي كان يخلعها على الأقسام القديمة فأوجد لكل قسم أو قبيلة حفلات دينية واختار أحد الأبطال القدماء وجعله الهاً أو قديساً راعياً للقسم أو القبيلة . وأصبح الأحرار الذين ولدوا من أصل أجنبي مواطنين من تلقاء أنفسهم في القسم الذى يقيمون فيه ، وقلما كان هؤلاء يتمتعون بحق الانتخاب في العهود الأرستقراطية التي كان حق المواطن فيها يعتمد على حسبه ونسبه ، وبهذا العمل وحده تضاعف عدد الناخبين ، وأصبحوا عوناً جديداً للديمقراطية التي أضحيت من ذلك الوقت أقوى أساساً من ذى قبل .

وخولت كل قبيلة جديدة حق ترشيح أحد الاستراتيجوى ( القواد ) العشرة الذين اشتركوا من ذلك الوقت مع القائد الأعلى في قيادة الجيش ، كما خولت أيضاً حق اختيار خمسين عضواً من أعضاء المجلس الجديد المؤلف من خمسمائة عضو وعضو والذي حل الآن مجلس صولون المؤلف من أربعائة ، وجعلت له السلطات الهامة التي كانت لمجلس الأريوبوموس . وكان هؤلاء الأعضاء يختارون مدة عام واحد بالقرعة لا بالانتخاب ، من قوائم تحوى أسماء جميع المواطنين الذين بلغوا سن الثلاثين ، والذين لم يكونوا قد قضوا في المجلس القديم دورتين . وفي هذا النوع الجديد العجيب من أنواع النظام النيابي استبدل بالمبدأ الارستقراطى القائم على شرف المحدث ، وبالمبدأ الپلوتقراطى القائم على الثراء ، مبدأ الانتخاب بالقرعة ، فأتاحت لكل مواطن فرص متكافئة للاقتراع ، ولشغل منصب في أهم فرع من فروع الحكومة وأعظمها سلطاناً . ذلك أن المجلس الذى كان يختار بهذه الطريقة كان يعين جميع المسائل والاقتراحات التي تعرض على الجمعية لإقرارها أو رفضها ، ( ١٧ - ج ١ - مجلد ٢ )

كما كان يحتفظ لنفسه ببعض السلطات القضائية المختلفة الأنواع ، ويصرف كثيراً من الشئون الإدارية ، ويشرف على جميع موظفى الدولة .

وزيد عدد أعضاء الجمعية بمن دخلها من المواطنين الجدد ، وبهذا كانت جلستها التى يحضرها الأعضاء جميعاً تضم ما يقرب من ثلاثين ألف رجل ، وكان من حق هؤلاء جميعاً أن يختاروا للعمل فى البليا أو المحاكم ، أما الطبقة الرابعة أو التيتيس فقد بقيت كما كانت فى عهد صولون لا يختار منها أحد للمناصب التى يشغلها فرد واحد . وزادت سلطات الجمعية بإنشاء نظام « الحرمان » من عضوية الهيئة الاجتماعية والطرده من البلاد ، وهو الحق الذى أضافه كليستينز الى حقوقها على ما يبدو ليحمى به الجمهورية الناشئة . وبمقتضى هذا الحق الجديد كان فى استطاعة الجمعية ، بناء على اقتراح تقدمه أغلبية أعضائها مكتوب بطريقة سرية على قطع من الفخار ، كان فى استطاعة الجمعية إذا حضرها العدد القانونى وهو ستة آلاف من أعضائها أن تنفى من البلاد مدة عشر سنين أى إنسان ترى هى أنه أصبح خطراً على الدولة . وبهذه الطريقة كان الزعماء الطموحون يضطرون إلى أن يسلكوا مسلك الحذر والاعتدال ، وكان فى استطاعة الجمعية أن تتخلص ممن تظنهم يتآمرون عليها من غير الإبطاء الذى تستلزمه الإجراءات القضائية . وكان كل ما يتطلبه هذا العمل من إجراء أن يسأل أعضاء الجمعية : « هل من بينكم رجل تظنونه شديد الخطر على الدولة ؟ وإذا كان فن هو هذا الرجل ؟ » وكان فى وسع الجمعية حينئذ أن تقترح على نفى أى مواطن دون أن يستثنى من ذلك صاحب السؤال نفسه (\*) . ولم يكن هذا النفى يتضمن مصادرة الملك كما أن المنفى لم يكن يلحقه من جرائمه عار ؛ ولم يكن إلا الطريقة التى تلجأ إليها الديمقراطية لقطع « أطول السنابل (٩٢) » . ولم تسمى الجمعية استخدام سلطانها هذا ، ذلك أنها

( \* ) وقد أنشئ نظام كهذا فى أرجوس ، ومجارا ، وسرقوسة .

لم تستخدم حقها طوال التسعين عاماً التي مضت بين تقريره وبين إبطال العمل به في أثينة إلا في إخراج عشرة أشخاص من أتكا .

ويقال إن كليستينز نفسه كان من بين هؤلاء العشرة ؛ ولكننا في واقع الأمر لا نعرف تاريخه في آخر أيامه ، فقد اختفى وضاع في لآلاء أعماله . بدأ عمله بثورة تتعارض كل المعارضة مع الأصول الدستورية ، ولكنه وضع بها رغم معارضة أقوى الأسر في أثينة دستوراً ديمقراطياً ظل نافذاً ، مع بعض تغييرات قليلة ، إلى آخر عهود الحرية الأثينية . على أن الديمقراطية لم تكن كاملة ، لأنها لم تكن تطبق إلا على الأحرار ، وظلت تضع قيوداً خفيفاً من الملكية على حق الانتخاب للمناصب الفردية(\*) . غير أنها أعطت جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية إلى جمعية وإلى محكمة تتكونان من المواطنين ، وإلى حكام كبار تعيينهم الجمعية ويكونون مسئولين أمامها ، وإلى مجلس يختار أعضاؤه بأصوات كل من يريد الاقتراع من المواطنين ، ويشترك بالفعل في ممارسة سلطانه الأعلى ثلثهم مدة سنة من حياتهم على الأقل . إن العالم لم يرق في تاريخه كله قبل ذلك العهد نظاماً انتخابياً أكثر من هذا النظام حرية ، ولا سلطة سياسية شعبية أوسع من هذه السلطة .

واغتبط الأثينيون أنفسهم أشد الاغتباط بهذه المغامرة التي تستهدف سيادة الشعب . لقد أدركوا أنهم كانوا مقدمين على مغامرة شاقة خطيرة ، ولكنهم أقدموا عليها بشجاعة وأنفة ، وبعثدال وضبط للنفس داما بعض الوقت . ولقد عرفوا من ذلك الوقت لذة الحرية في العمل والقول والتفكير ، وبدأوا يتزعمون بلاد اليونان كلها في الآداب والفنون ، بل في السياسة والحرب أيضاً ، وتعلموا أن يطيعوا من جديد قانوناً يعبر عن إرادتهم

---

(\*) اشترط قدر من الملك لممارسة حق الانتخاب في المراحل الأولى من الديمقراطية

هم أنفسهم ، وأن يجبوا حباً لا يعادله حب من قبله الدولة التي كانت تمثل وحدتهم وسلطانهم ، والتي تعمل لإكمال هذه الوحدة وهذا السلطان : ولما همت أعظم إمبراطورية في ذلك العهد أن تدمر هذه المدن المتفرقة المسماة ببلاد اليونان ، وأن تفرض عليها الجزية تؤديها عن يد إلى الملك العظيم ، نسبت أنها سيقاومها في أتكا رجال يمتلكون الأرض التي يفلحونها ، ويسيطرون على الدولة التي تحكمهم . وكان من حسن حظ بلاد اليونان ومن حسن حظ أوروبا أن كليستينز قد أتم عمله وعمل صولون قبل مرثون باثني عشر عاماً .

